إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

التفسير: لقد صرّح الله تعالى هنا أن من يصبح عبدًا لله حقًّا لا يملك الشيطان أيَّ سلطة عليه، لأن الشيطان إنما أُعطيَ المهلةَ إلى يوم القيامة.. أي أن الإنسان يقع فريسة لهجمات الشيطان إذا كان ضعيفًا في الروحانية، ولكنه إذا تقوّى روحانيًّا تولدت فيه الشجاعة، فلم يكترث للتهديد ولا الأذى ولا الإغراء.

وتُعلّمنا هذه الآية سرَّ العصمة من هجمات الشيطان، ألا وهو أن يصير الإنسان عبدًا لله تعالى.. أي أن يُسلم نفسَه لله تعالى، ويتوكل عليه بدلاً من الاعتماد على كفاءاته وقواه؛ لأن من أصبح الله وكيلا له لا يستطيع الشيطان أن يضرّه شيئًا.

رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

شرح الكلمات:

يُزجي: أزجاه إزجاء: بمعنى زجّاه، ومنه في القرآن: ﴿رَبُّكُمُ الذي يُزجِي لكمُ الْفُلْكَ﴾.. أي يُجريه ويسوقه (الأقرب).

التفسير: أي لقد خلق الله تعالى النِعم الحقيقية، ولكن الناس لا يقدرونها حق قدرها. فمثلاً إنه تعالى لم يوفّر وسائلَ السفر والاتصال على الأرض فحسب، بل جعل أيضًا السفن للإبحار، وهكذا وسّع دائرةَ الاتصال بين الناس، وإلا لبقي أهل الجزر وسكان القارات يجهلون بعضهم بعضًا.

ويتضمن هذا المثال – في رأيي – الإشارة إلى كون الإسلام دينًا عالميًّا، وأنه سيُكتب له الانتشار في العالم أجمع. ولما كان هذا الأمر منوطًا بالسفن التي

يستحيل بدونها السفر في البحار، لذا ذكر هنا نعمةَ البحار والسفن على وجه الخصوص، إشارةً إلى أن هذه النعمة سوف ينالها المسلمون بكثرة. مما لا شك فيه أن المسلمين ضعفاء في هذا المجال في العصر الحاضر، ولكن قد أتى عليهم حين من الدهر كانت سفنهم فيه تمخر عباب المحيطات في العالم كله. وكل الخرائط والطرق البحرية الموجودة قد وضعها المسلمون. والحق أن الرحلات البحرية الأوروبية إلى الهند مرهونة بفضل أحد البحّارة المسلمين العرب الذي وجد بعض السفن البرتغالية وقد ضلّت طريقها، فأوصلها إلى الهند آخذًا بها حول القارة الأفريقية. (Arabian Students, vol. ١ p. ٨٦ - ٩٣)

وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٨﴾

التفسير: يقول الله تعالى: إن الإنسان كثير الجحود إذ ينسى دائمًا حالتَه السابقة. حين تحل به مصيبةٌ يقول: لو نجوت منها فلن أعمل إلا صالحًا، ولكنه عند زوال المصيبة ينسى كل ما قال ووعد.

لقد نبه الله المسلمين هنا ألا يسلكوا مسلك الكفار إبان الازدهار، بل عليهم أن يذكروا الله تعالى زمنَ رقيهم على الدوام، كي ينصرهم عند المصائب.

أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٩﴾

شرح الكلمات:

يخسِف: راجِعْ شرح الآية رقم ٤٦ من سورة النحل.

حاصبًا: حصَبه يحصبه: رماه بالحَصْباء. والحاصب: ريحٌ تحمل الترابَ والحصباء؛ وقيل: هو ما تناثَرَ مِن دِقاق الثلج والبَرَدِ؛ السحاب لأنه يرمي بالثلج والبرد (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى: أيها الناس، تتجاسرون علينا حين تكونون على اليابسة! أتظنون أننا غير قادرين على أن نرسل عليكم العذاب وأنتم في البر؟ أليس الله قادرًا على أن يدفنكم في الأرض، أو يرسل عليكم مطرًا من الحجارة؟ فما هي الفائدة التي تجنونها بالتفريق بين البر والبحر فيما يتعلق بسلوككم؟

وعندي أن هذه الآية تحمل النبأ عن غزوة بدر. ففي هذه الغزوة رمى النبي ﷺ حفنة من الحصى إلى الكفار، وتزامنَ ذلك هبوب ريح شديدة، فبدأت الحصى تقع في وجوه الكفار. وكانت الريح تهبّ تجاهَ الكفار ففقدت سهامُهم التي يطلقونها إلى المسلمين السرعةَ والقوةَ، بينما ازدادت سهام المسلمين سرعةً وقوةً بسبب الريح. (دلائل النبوة للبيهقي، باب إذا التقى الجمعان)

كان العرب كلهم، مسلمين ويهودًا ونصارى، يخافون البحر خوفًا شديدًا، لذلك ساق الله هنا مثال البحر لينبه به غيرَ المسلمين أنهم حين يخرجون إلى البحر يصابون بالهلع الشديد نتيجة طوفان بسيط، ظانين أنه عذاب مدمر قد أحاط بهم جراء سيئاتهم، ولكنهم حين يكونون في البر يتجاسرون علينا. فليعلموا أنّا نستطيع أن ندمّرهم في البر أيضًا.

كما أن هذه الآية تحثّ المسلمين على الأسفار البحرية، حيث نصحهم الله تعالى: ما دام البر والبحر كلاهما محفوفًا بالأخطار فلا يدفعنّكم الغباء لتقبَعوا في البر فقط ولا تخرجوا إلى البحار.

أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ﴿٦٩﴾

شرح الكلمات:

قاصفًا: اسمُ فاعلٍ من قصَف الشيءَ يقصِف قَصْفًا فقصَف هو: كسَره فانكسر، لازمٌ متعدٍّ. قصَف الرعدُ: اشتدَّ صوتُه. رعدٌ قاصفٌ أي صَيِّتٌ. ريحٌ قاصفٌ أي شديدة تكسر ما مرّتْ به من الشجر وغيره (الأقرب).

تبيعًا: التبيع: الناصرُ؛ التابعُ (الأقرب).

التفسير: أرى أن قوله تعالى ﴿أن يُعيدكم فيه تارةً أخرى﴾ كان يتضمن نبأً عن فتح مكة، إذ هرب كثير من المشركين على متون السفن إلى اليمن أو الحبشة؛ فجاءهم الطوفان في البحر، فغرق معظمهم. وكان عكرمة بن أبي جهل من بين هؤلاء الهاربين، ولكنه لم يجد أي سفينة فتخلَّفَ. فجاءت زوجتُه النبيَّ ﷺ تستأمنه له، فأمّن عكرمةَ. فلحقتْ به بالساحل وجاءتْ به. (السيرة النبوية لابن هشام: أمان الرسول لصفوان بن أمية)

وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴿٧٠﴾

التفسير: يقول الله تعالى: إنه قد أعزّ الناس كافةً، وليس شعبًا بعينه دون غيره؛ فلا يحق للأمم أن تتفاخر بعضُها على بعض.

واعلم أن هذا النصح موجَّه إلى اليهود وقريش خاصةً، الذين كانوا يرون أنهم أفضل من غيرهم. لقد نبّههم الله تعالى أنه قد أكرم كل الأقوام، ولكن بعضها لا ينتفعون من هذا التكريم، فيسدّون في وجههم الأبواب التي فتحها الله لهم.

وأشار بقوله تعالى ﴿وحَمَلناهم في البر والبحر﴾ إلى أنه قد خلق البر والبحر كليهما لرقي الإنسان، فإذا أراد شعب ما العزةَ فعليه بالاستفادة من كليهما على حد سواء.

يقول البعض أن القرآن من اختلاق محمد ﷺ (ستيارث بركاش باب ١٤ في تحقيق الإسلام ص ٦٧١). ولكن كيف يمكن أن تخرُج الأمور المذكورة هنا من فمِ أُمِّيٍّ عربي لم يركب السفينة قط.

من المؤسف أن المسلمين نسُوا هذا النصح الإلهي بعد بضعة قرون، فذهبت ريحهم. ولو أنهم اهتمّوا بأساطيلهم البحرية لم يصب الإسلامَ هذا الضعفُ والاضمحلال.

هذا، وقد استنتج البعض من قوله تعالى ﴿وفضَّلْناهم على كثيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ أن الإنسان أفضل من بعض المخلوقات، وليس كلِّها (تفسير البغوي).

لكن هذا الاستنتاج غير سليم، لأن الله تعالى يتحدث هنا عن بني آدم ككل. وأي شك في أن ليس كل فرد من النوع الإنساني بأفضل من كل مخلوق آخر؛ إذ يوجد بين الناس من هو أسوأ حتى من البهائم؛ ومنهم من هو متوسط، وهو أفضل من البهائم؛ ومنهم من فيه الخير الكثير وهو أفضل من الملائكة العاديين؛ ومنهم من يبلغ درجةً أسمى من ذلك أيضًا، وهو أفضل من الملائكة الكبار أيضًا. وبالاختصار ليس كل فرد من البشر أفضل من كل المخلوقات الأخرى، بل إن بعضهم أفضل من جميع المخلوقات الأخرى، أما الإنسان كنوع أفضل من معظم هذه المخلوقات، لأن الشمس والقمر والنجوم والحيوانات كالفرس والثور والجمل والغنم وغيرها كلها تعمل لخير الجميع ومسخَّرات لكل البشر، سواء

الكافر منهم والمؤمن. إذًا فالإنسان كجنس أفضل من أكثر الكائنات، وأما كفرد كامل فإنه أفضل منها جميعًا.

يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٢﴾

شرح الكلمات:

فتيلاً: الفتيل: المفتولُ؛ حبلٌ دقيق من خَزَمٍ أو لِيفٍ؛ السَّحاةُ التي في شِقِّ النواة؛ ما فَتَلْتَه بين أصابعك من الوسَخ (الأقرب).

التفسير: قال المفسرون أن قوله تعالى ﴿بإمامهم﴾ يعني بكتابهم (البغوي). ولكنا نقول: ما دام الأئمة قد خلوا في كل الأمم، فيجب أن نفسر كلمة الإمام بمفهومها المعروف المتداول عمومًا، أي أن كل أمة سوف تُدعى باسم نبيها، ويقال: فلتتقدم الآن أمةُ النبي الفلاني. ذلك أن كل نبي سوف يشهد أنه قد بلّغهم رسالة الله تعالى. وهذا ما ينص عليه القرآن الكريم، ويؤكده الحديث الشريف أيضًا. (النساء :٤٢، ومسند أحمد ج ٣ ص ٣٢ رواية أبي سعيد الخدري)

أما قوله تعالى ﴿فمن أُوتيَ كتابَه بيمينه﴾ فالمراد من الكتاب هنا سجلُّ الأعمال، كما تؤكد ذلك آية أخرى: ﴿يا ليتني لم أُوتَ كتابيَه * ولم أَدْرِ ما حسابيَه﴾ (الحاقَّة: ٢٦و ٢٧).

واعلم أن الإسلام قد اعتبر اليد اليمنى علامة البركة، واليد اليسرى علامة العقاب. وفي البنية الإنسانية أيضًا يفوق الجانب الأيمن على الجانب الأيسر لأن أعضاء الجانب الأيمن أقدر على العمل عمومًا. فإيتاء سجل الأعمال في يمين أحد يعني أن حسابه يكون يسيرًا مباركًا.

ونجد الجنس البشري يُجمِع على كثرة استعمال اليمين. فحكم استعمال اليمين في شـــرعنا ليس أمـــرًا متكلَّفًا، بل إن الناس من كل شعب وملة، مثقفين

وغيرهم على حد سواء، ما زالوا يستخدمون اليد اليمنى في أعمالهم على العموم. بل كل الناس – سواء الآسيويون منهم أو الأوروبيون أو الأفارقة والأمريكان، والمتحضرون منهم وغير المتحضرين، المتدينون أو العلمانيون– كلهم يعملون باليمنى، اللهم إلا من كان مريضًا أو تحت تأثير غير طبيعي. ونعرف بالتجربة نفسها أن العين اليمنى في الغالب تكون أقوى من اليسرى.

يقول البعض أن الإنسان يفضّل استعمال اليمين بسبب العادة. ولكن السؤال هنا: كيف رسخت هذه العادة في الإنسان؟ ما الذي دفعه إلى ذلك في أول الأمر؟ لا شك أنه بطبعه بدأ استعمال اليمين في أول الأمر، فترسخت هذه العادة في نسله. إذن فلم لا نقول: كما أن الإنسان الأول فكّر في استعمال اليمين في أعماله مدفوعًا بطبعه، كذلك حصل بأجياله.

وقد أرجع بعض الأطباء استعمال اليمين إلى وجود القلب في الجانب الأيسر من الجسم، وبالتالي فإن تدفق الدم إلى الجانب الأيسر من المخ يكون أكثرَ نسبيًا، الأمر الذي يجعل الجانبَ الأيسر من المخ أقوى. وبما أن الجانب الأيمن من المخ يشغّل أعصابَ الناحية اليسرى من الجسم، بينما يشغّل الجانبُ الأيسر من المخ – وهو الجانب الأقوى كما رأينا – أعصابَ الناحية اليمنى من الجسم، لذلك تتقوى أعصاب الناحية اليمنى من الجسم أكثر، مما يدفع الإنسان يميل إلى استخدام الأعضاء اليمنى. (Foundation of Anatomy and Physiology p. ٣٢٣)

ولكن لا يهمّنا هذا التفسير الطبـــي، صوابًا كان أو خطأً، وإنما المهم أن كل الدنيا تفضّل اليمين على اليسار، وأن استعمال اليمنى أكثرَ هو الأمر الطبيعي.

وهناك أمر غريب آخر جدير بالتدبر في هذا الصدد. إن الإحصائيات تدلّنا أن نسبة العاملين باليسرى بين أصحاء العقل تبلغ ما بين أربعة إلى ثمانية بالمائة فحسب، ولكن هذه النسبة ترتفع جدًّا بين المجانين (الموسوعة البريطانية كلمة Handedness). وهذا بحد ذاته برهانٌ آخر على أن قانون الطبيعة هو الذي قد فضّل اليد اليمنى على اليسرى.

لقد ثبت مما سبق بيانه أن اليد اليمنى أنسب للعمل، وبها تعمل الأغلبيةُ في العالم. إذًا فاليد اليمنى يمكن أن تُعتبر رمزًا للقوة العملية. وحيثما ذكر القرآن أن الصالحين سيُعطَون سجل أعمالهم في يمينهم فهو الإشارة إلى أنهم كانوا العاملين المجتهدين المضحّين. وحيثما ذكر أن البعض سيؤتَون سجل أعمالهم في يسارهم فالمراد منه أنهم كانوا العاطلين الكسالى المتهربين من التضحية. ذلك أن اليد اليسرى أقلُّ عملاً بكثير من اليمنى.

ومما يجدر ذكره أيضًا أن الشرع قد خصَّ اليدَ اليمنى لأداء الأعمال الطيبة، واليسرى لإزالة النجس والخبث وغير ذلك. وعليه فقد يكون المراد من إيتاء البعض كتابَه في اليمنى بأنه كان يعمل الصالحات، وأما من أوتي كتابه بيده الشمال فكان يعمل الخبيثات.

وأيضًا فإن اليمين إيماءة إلى أمر آخر. قال الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم ﴿لأَخَذْنا منه باليمين﴾(الحاقة: ٤٦)، وقد فسره المفسرون: أننا سوف نبطش به بالقوة والقدرة (القرطبي)؛ وعليه فقد يعني قوله تعالى ﴿فمَن أُوتيَ كتابَه بيَمينه﴾ أن هذا أمسك بالخير بكل قوة ولذلك نجَا. وأما غيره فكأنه يقال له: حيث إنك لم تسع كما ينبغي للاستمساك بالخير والتقوى، واستخدمت يدك اليسرى التي هي ضعيفة، فكان مصيرك الدمار.

ثم إن اليُمن يعني البركة أيضًا (الأقرب)، كما ورد في الحديث: "كلتا يَدَي ربي يمينٌ" * أي في كلتيهما بركة، ولا شمالَ له سبحانه وتعالى؛ وعليه ففي إيتاء كتابهم في يمينهم إشارة إلى كون مصيرهم مباركًا.

* أقرب الروايات بهذا المعنى هي: "قال رسول الله ﷺ: إن المقسطين عند الله عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين" (مسلم: كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل).

وأما قوله تعالى ﴿فأولئك يقرَؤون كتابَهم﴾ فإشارة إلى فرحتهم، لأن الذي ينال جائزة يقرأ خبرها فورًا من فرط الشوق والسرور، ولكن الذي ينال عقابًا فلا يقدر على قراءة قرار العقاب، بل يفر من قراءته قدر الإمكان.

وأما قوله تعالى ﴿ولا يُظلَمون فتيلاً﴾.. فاعلم أن الفتيل هو الحبل الدقيق، وكذلك الغطاء الذي يكون في شِقّ نواة التمر، ويُستعار للشيء القليل؛ فالمعنى: أنهم لن يُظلَموا مثقالَ ذرة.

وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٧٢﴾

التفسير: أي من لم يبصر بعيونه الروحانية في الدنيا لن يعطَى العيونَ الروحانية في الآخرة، وسيبقى محرومًا من رؤية الله تعالى. ولقد أكّد القرآن هذا المعنى في أماكن أخرى منها:

١- ﴿قد جاءكم بصائِرُ من ربِّكم فمَن أَبصرَ فلِنفسِه ومَن عَميَ فعليها﴾ (الأنعام: ١٠٥).

٢- ﴿والذين إذا ذُكِّروا بآياتِ ربِّهم لم يَخرُّوا عليها صُمًّا وعُمْيانًا﴾(الفرقان: ٧٤).. أي إنما المؤمنون الذين إذا ذُكرتْ أمامَهم آياتُ ربهم لم يعاملوها كالصُّمّ والعميان، وإنما أصغَوا إليها بملء آذانهم وعيونهم. إذن فقد أَطلق الله تعالى هنا اسم العميان على من يصدّقون الأمور دونما فحص وتحقيق.

٣- ﴿ومَن أَعرَضَ عن ذِكري فإنّ له معيشةً ضَنْكًا ونحشُره يومَ القيامة أَعمَى﴾ (طه: ١٢٥).. فالأعمى هنا من يتعامى عن الحقائق والبصائر التي تأتي من عند الله تعالى، ولأنه ارتضى لنفسه أن يكون أعمى في هذه الدنيا فلن يتمكن من رؤية الله تعالى في الآخرة.

وليس المراد من هذه الآية أن المصابين بالعمى المادي في الدنيا سيُبعثون في الآخرة كذلك عميانًا، ذلك أن النقائص البدنية ستزول كلها لدى البعث بعد الموت، لأن الجسم المادي سيبقى في هذه الدنيا. إذن فالمقصود عَمًى روحاني.

وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٤﴾

شرح الكلمات:

خليلاً: الخليل: الصديقُ المختص؛ وقيل: هو الذي صادقتَه بعد إذ جرّبتَه (الأقرب).

التفسير: لقد ذكر المفسرون في تفسير هذه الآية روايات مفادها أن الكفار قالوا لرسول الله ﷺ: تعالَ تَمَسَّحْ آلهتَنا باحترام، ندخُلْ معك في دينك. فقال رسول الله في نفسه – والعياذ بالله: وما عليَّ لو فعلتُ، واللهُ يعلم مني خلافَه؟ فأنـــزل الله تعالى هذه الآيات (فتح البيان، والدر المنثور).

لكن ليس في الآية مفهوم من هذا القبيل أبدًا، كما أنه منافٍ لمقام النبي ﷺ، ومتناقض مع معنى الآيات التالية أيضًا.

ولنعلم أن "كادَ" إذا اقترنت بالنفي فتعني أن الفعل المذكور بعدها قد وقع، وإذا لم تقترن بالنفي فتعني عدم وقوع ذلك الفعل (المفردات). وبما أن (كاد) قد وردت هنا بدون نفي فالمعنى أن فعل الفتنة المذكور في قوله تعالى ﴿لَيَفتِنونك﴾ لم يقع.

علمًا أن الفتنة تعني إلقاء أحد في الابتلاء أي في الاختبار أو العذاب (أقرب الموارد). فلو فسّرناها بالابتلاء فالمراد أنهم أوشكوا أن يلقوك في الابتلاء، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك. وأما إذا فسّرناها بالعذاب فالمراد أنهم أوشكوا أن يُلقوك في العذاب، ولكنهم لم يقدروا على ذلك.

غير أن معنى الابتلاء يُوهِم وكأن النبي ﷺ أوشك أن يغيِّر القرآن جراءَ ضغط

الكفار، ولكنه لم يفعل ذلك. وغني عن البيان أن هذا المعنى أيضًا يتنافى مع مقام نبينا الكريم ﷺ؛ إذ لا يقال عن الرجل الشريف مثلا: كاد يسرِق، أو: كاد يظلِم، أو: كاد يضرِب أُمَّه، فهذه التعبيرات إساءة إليه بلا شك. فمن الخطأ الفاحش وأيضًا من المخالفِ للواقع أن يقال عن رسول الله ﷺ أنه كاد أن يفتري على الله تعالى، ولكنه لم يفعل. فلا يكفي لهؤلاء المفسرين أن يقولوا: ما دام النبي صلى الله عليه وسلم لم يرتكب هذا الخطأ فلا بأس في تسجيل الرواية المذكورة أعلاه. ذلك أن رسل الله تعالى لا يقتربون من أي معصية، وأما معصية الافتراء على الله سبحانه وتعالى فحتى المؤمن الضعيف أيضًا لا يقترب منها، بَلْهَ أن يقترفها فعلاً! فأرى أن هؤلاء المفسرين، سواء الجدد أو القدامى، قد ارتكبوا هنا خطأً فادحًا.

وأرى أن الفتنة في قوله تعالى ﴿وإنْ كادوا لَيَفتِنونك عن الذي أوحينا إليك﴾ يعني العذابَ، وأن ﴿عن﴾ هنا تعليليةٌ كما في قوله تعالى ﴿وما نحن بتاركي آلهتِنا عن قولك﴾(هود: ٥٤)؛ والمراد: لقد أوشك الكفار أن يُلقُوك في العذاب بسبب ما أوحينا إليك لكي تفتري علينا غيرَ ما آتيناك في القرآن من تعليمات. ولا جرم أن هذا المعنى خال من أي إساءة إلى الرسول ﷺ، إذ يخبر الله به رسولَه الكريم أن الكفار كانوا يكنّون ضدك نوايا خطيرة جدًّا، وأرادوا أن يُلقوك في العذاب الشديد، ليُكرِهوك على أن تترك القرآن وتقولَ ما يُرضيهم، ولكنا أفشلناهم. وهذا المفهوم لا يعزو إلى النبي ﷺ أي فعل سيئ أو نيّةَ فعل سيئ، وإنما يعزوه إلى الكفار وحدهم، ويخبر أن الله تعالى قد أحبط مؤامرتهم هذه، فمنعهم من أن يحققوا حتى هدف تعذيب رسوله الكريم، ناهيك أن يصرفوه عن القرآن فعلاً.

وقد أشار الله تعالى إلى نواياهم هذه في موضع آخر من القرآن الكريم حين قال ﴿وإذْ يمكُر بك الذين كفروا لِيُثبِتُوك أو يقتُلوك أو يُخرِجوك ويمكُرون ويمكُر اللَّهُ واللَّهُ خيرُ الماكرين﴾(الأنفال: ٣١). وقولُه ﴿لِيُثبِتوك﴾ أي يأسِروك، وقولُه ﴿والله خير الماكرين﴾ يعني أن كيد الله هو الغالب في آخر الأمر.

فهذه الآية أيضًا توضح أن الكفار كانوا ينوون - للضغط على النبي ﷺ - أَسْرَه أو قتلَه أو نفيَه، ولكن الله تعالى أفشلَهم في مراميهم الخبيثة كلها. وهذا ما تعنيه أيضًا الآية التي نحن بصدد تفسيرها، حيث أخبرت أن الكفار خابوا وفشلوا في ما كانوا يهدفون إليه من تعذيب النبي ﷺ.

وقد يقال هنا: لا شك أنهم لم يفلحوا في أسره ﷺ وقتله، ولكنهم نجحوا في نفيه من الوطن!.

والجواب أنهم في الواقع قد فشلوا في هذا الهدف أيضًا، إذ لم يكونوا يريدون نفيه ﷺ من البلد فحسب، لأن هذا لا يحقق هدفهم، وإنما كانت نيتهم أن يطردوه من بينهم ذليلا مهانًا، ليفضحوه أمام الدنيا. ولكنهم فشلوا في ذلك فشلا ذريعًا، لأن الله تعالى نبّأ رسوله بمؤامرتهم قبل أن ينفذوها، فهاجَرَ من بينهم؛ وكانت هجرته خلاف ما ينوون، ولذلك تجد أنهم حين عرفوا أنه قد خرج من بينهم معافًى معزَّزًا خرجوا على أثره يلاحقونه، ولما فشلوا في إلقاء القبض عليه بأنفسهم جعلوا لمن يأتيهم به أسيرًا جائزة قدرها مائة إبل (البخاري: كتاب المناقب، باب هجرة النبي ﷺ). فلو كان هدفهم مجرد طرده من بينهم لفرحوا بهجرته، بدلاً من أن يطاردوه ويجعلوا جائزة لمن يأتيهم به أسيرًا. فثبت أن الكفار ما كانوا يريدون مجرد خروجه من بينهم، وإنما كانوا يريدون طرده من بينهم صاغِرًا مُهانًا، لكي يتخلى - والعياذ بالله - عما جاء به، أو يذهب حيثما يذهب بوصمة العار والهوان؛ ولكن الله تعالى خيّبهم في نواياهم الشريرة كلها.

وباختصار إن هذه الآية لا تعني أبدًا ما ذهب إليه بعض المفسرين مِن أن الرسول ﷺ أوشك بالفعل أن يتخلى عن موقفه، أو كان هناك احتمال من هذا القبيل. ذلك أن هذه السورة نـــزلت قبيل هجرة النبي ﷺ حين عجز الكفار عن مقاومته تمامًا، فصمّموا يائسين أن يحولوا دون تبليغه رسالةَ القرآن الكريم بإلقاءِ القبض عليه أو تهديدِه بالقتل أو طردِه من بينهم ذليلا مهانًا، وإذا لم يتأثر من

تهديدهم يقضون على حياته المادية أو المعنوية والأخلاقية تحقيقًا لهدفهم. ولكن الله تعالى خيّب آمالهم كليةً.

وأما قوله تعالى ﴿وإذًا لاتخذوك خليلاً﴾ فيعني أنهم لو نجحوا في ردّك عن الحق بالتعذيب لاعتبروك صديقًا حميمًا لهم.

هذه الجملة أيضًا تشير إلى الحالة الأخلاقية المتردية لدى الكفار، وليس إلى أي ضعف في موقف الرسول ﷺ. لقد طالبه الكفار مرارًا أن يتخذ من أجلهم موقفًا لينًا في تعليمه – ولو قليلاً – ليجعلوه سيّدًا عليهم، حتى بعثوا ذات مرة وفدًا قال لعمّه أبي طالب: لا نطالب محمدًا الآن أن يُشرك آلهتنا مع الله تعالى، كل ما نريد منه هو ألا يذكر آلهتنا بسوء، ولو فعل ذلك من أجلنا لاتخذناه سيدًا علينا (السيرة النبوية لابن هشام: باب مباداة رسول الله ﷺ قومَه وما كان منه). وإلى هذا الأمر نفسه يشير قوله تعالى ﴿وإذًا لاتخذوك خليلا﴾، أي أنهم لما فشلوا في تحقيق مآربهم بإغرائك قرّروا أن يُكرهوك على ما يريدونه بالظلم والعدوان، ولكننا أفشلناهم وسنُفشلهم في المستقبل أيضًا. إن نواياهم هذه دليل على تردِّي أخلاقهم، وإن محاولاتهم هذه برهان على أنهم معترفون بعظمتك في قرارة نفوسهم، ولذلك يريدون أن يكسبوا تأييدك بأي طريق ممكن؛ ولكن لا يفرح بمثل هذا التأييد والرضا إلا أصحاب الرذائل.

وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴿٧٥﴾

شرح الكلمات:

ثبَّتْناك: ثبَت الأمرُ عند فلان: تحقَّق وتأكَّدَ. ثبَت فلان على الأمر: داوَمَه وواظَبَه. ثبَّته وأَثبتَه: جعَله ثابتًا في مكانه (الأقرب).

تركَن: ركَن إليه: مالَ إليه (الأقرب).

التفسير: هذه الآية أيضًا تدعم موقفي الذي بيّنتُه من قبل. فقد أعلن الله تعالى هنا: لو لم نثبّتك لكان هناك احتمال أن تميل إليهم إلى حد ما؛ دون أن تتفق معهم كلية، بل كل ما سيحصل هو اتفاق بسيط بين أفكارك وأفكارهم.

تعالوا نر الآن ما هو التثبيت في اصطلاح القرآن. يقول الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿يثبِّت اللّهُ الذين آمَنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾(إبراهيم: ٢٨).. أي بالوحي يوفق الله ﷻ المؤمنين للثبات على أعمال الدنيا والآخرة. وقال أيضًا ﴿كذلك لنثبِّتَ به فُؤَادَك﴾(الفرقان: ٣٣).. أي يعترض الكفار على عدم نزول القرآن دفعةً واحدةً، وجوابه: لقد أنزلناه بالتدريج لكي نقوّي به قلب الرسول، ولنجعله يسري في كل ذرة من فؤاده.

لقد تبين من ذلك أن الوحي هو سبب التثبيت، وعليه فالمراد من الآية: أننا لو لم نثبّت قلبَك على الإيمان بوحينا إليك كان هناك احتمال أن تميل إليهم قليلاً.

لا يصعب على المرء بعد هذا الشرح أن يدرك أن هذه الآية لا تقصد أنه حتى بعد نـــزول القرآن الكريم أيضًا كان ثمة احتمال أن يميل النبي ﷺ إلى الكفار، وإنما تؤكد استحالةَ قبوله ﷺ أي قول للكفار بعد نـــزول القرآن عليه، بل ولو لم ينـــزل عليه القرآن ولم يعرف المشيئةَ الإلهية فأيضًا كان محالاً عليه – لنقاء فطرته– أن يشترك مع المشركين في أعمالهم الوثنية. نعم، كان من الممكن– في حالة عدم نزول نور الوحي – أن يسلك مسلكهم في بعض الأمور البسيطة.

إذًا فالآية تمثّل مدحًا عظيمًا للنبي الكريم ﷺ إذ بيّنتْ أن الكفار ما كانوا ليتوقعوا منه أن يتفق معهم كلية ولو لم ينـــزل عليه القرآن الكريم، فكيف بعد نـــزوله؟

إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٦﴾

شرح الكلمات:

ضعْف: ضعفُ الشيء: مثلُه في المقدار. وجائزٌ في كلام العرب أن يكون الضِّعفُ المثلَ الواحدَ وما زاد عليه من الأمثال، يقال: "لك ضِعْفُه" أي مثْلاه وثلاثةُ أمثالِه، لأنه في الأصل زيادةٌ غير محصورة. وفي الكليات: أقلُّ الضِّعف محصور وهو المثل الواحد وأكثرُه غير محصور (الأقرب).

التفسير: لقد صرّح الله تعالى هنا أنك لو لم تكن رسولاً، واشتركت مع قومك في بعض الأمور البسيطة، لما كنت سببًا في نجاتهم، بل لجلبتَ على نفسك أيضًا العذاب، فماذا ينفعهم عندئذ تأييدك لهم؟ وكأنه تعالى يقول: إن عظمة النبي تكمن في الوحي النازل عليه، ولكن الكفار لا يدركون هذا الأمر، ويظنون أنه صاحب كفاءات عالية، ولو أنه غيّر شيئًا من مبادئه وانضم إليهم فلربما حقق قومه رقيًّا مدهشًا. ولكن الحق أن ظنهم هذا باطل، لأن عظمة النبي وكماله إنما يكمُن في الوحي النازل عليه، ولولا الوحي لصار كغيره من القوم؛ فلا جدوى من هذه التوقعات الباطلة.

واعلم أن هناك محذوفًا بعد كلمة ﴿ضِعف﴾ في قوله تعالى ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾، والتقدير: ضِعْفَ عذابِ الحياة وضعفَ عذاب الممات (إعراب القرآن للدرويش ص ٤٧٨). والضِّعف هنا يعني المِثل، والمعنى: مِثلَ عذابِ الحياة ومِثلَ عذابِ الممات، أي أن النبي إذا لم يهتد بهدي الوحي النازل عليه ولم يكسب به رضى الله فهو الآخر يؤخذ بالعذاب كما يؤخذ باقي القوم.

وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَا ﷺ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٧٧﴾

التفسير: قال الله تعالى هنا أولاً ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ﴾، ثم قال بعد ذلك ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾، مع أن "استفَزَّه من الأرض" أيضًا يعني أخرجه منها؛ وهذا يدل على أن الإخراج من الأرض جاء هنا بمعنى آخر، وإلا فما الجدوى من هذا التكرار؟ ولكن إذا اعتبرنا ﴿لِيُخرجوك منها﴾ مجازًا فلا يبقى هناك أي تكرار؛ وعليه فقد تعني هذه الآية أن هؤلاء كادوا أن يُخرجوك من البلد بحيث لا يكون لك دخل في شؤون حياتهم القومية، أي يطردوك صاغرًا مهانًا حتى لا يبقى لك تأثير في حياة العرب، وتموت موتًا معنويًّا. هذا المفهوم منسجم مع معنى الآية السابقة تمامًا، وأرى أن هذا هو المراد هنا، حيث أخبر الله تعالى رسوله أنهم لو نجحوا في خطتهم وطردوك من مكة ذليلا صاغرًا لأخذهم العذاب بعدك فورًا، وقضي عليهم، ولكن الله أمَرك بالهجرة، وهكذا حالت رحمة الله دون ارتكابهم جريمةَ طردك من بينهم ذليلاً مهانًا، حتى لا يتعرضوا للعذاب الشديد، وهكذا برهنَ الله ﷻ على محبته لك وأعزَّك بين القوم.

سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﷺ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلٗا ﴿٧٨﴾

التفسير: لقد أخبر الله تعالى هنا أن من سنتنا المستمرة منذ القدم أن أي قوم إذا طردوا نبيهم من بين ظهرانيهم ذليلاً صاغرًا أصبح باب التوبة شبهَ مغلَقٍ في وجههم، ونزل عليهم عذاب قومي شامل مدمِّر. ومثاله قوم صالح عليه السلام، الذين عقروا الناقة وحالوا دون أسفاره التبليغية، أو مثاله اليهودُ الذين علّقوا المسيح

على الصليب حتى اضطر عليه السلام للهجرة من ذلك البلد؛ فأحاط الدمارُ كلتا الأمتين، حيث دُمِّر قوم صالح تدميرًا شاملاً ظاهرًا، بينما دُمّر اليهود دمارًا معنويًا وسياسيًا. فبما أن الله تعالى قدّر ألا يمحو العرب بمثل هذا الدمار الشامل فلم يدَعهم ينجحون في خطتهم ضد النبي ﷺ، وهكذا نجّاهم من عذاب مدمر.

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ ۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٩﴾

شرح الكلمات:

دُلُوك: دلَكت الشمسُ دُلوكًا: غرُبتْ؛ اصفرّتْ؛ وقيل: مالت وزالت عن كبد السماء (الأقرب).

غَسَق: غسَقتْ عينُه غُسوقًا: دمَعتْ؛ وقيل: انصبّتْ؛ وقيل: أظلمتْ. غسَق الليلُ غَسَقًا: اشتدّت ظُلمتُه. الغَسَق: ظلمةُ أوّلِ الليلِ أو دخولُ أوّلِه حين يختلط الظلامُ (الأقرب).

مشهودًا: اسم مفعول من شَهِدَ المجلسَ شهودًا: حضَره واطّلعَ عليه. وشَهِدَ اللهُ أي عَلِمَ اللهُ وقَبِلَ اللهُ؛ وقيل: كَتَبَ اللهُ (الأقرب).

التفسير: لقد حذرت هذه الآية المسلمين من الأخطار التي تنتظرهم في المستقبل، حيث كان عليهم – بعد الهجرة – أن يواجهوا أممًا كانت تعبد الله في الظاهر، وكان من المحتمل أن تطعن هذه الأمم في المسلمين إذا ما تكاسلوا في العبادات؛ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان المسلمون سيحققون انتصارات سريعة وهي أيضًا عامل كبير على غفلة الشعوب في العبادات، ولذلك كله نبه الله المسلمين من الخطرين كليهما، فقال: حَذارِ أن تتوانَوا فتعرّضوا الإسلام لطعن الأغيار، وإياكم أن تتكاسلوا في العبادات فتُحرَموا من أفضال الله سبحانه وتعالى.

واعلم أن هذه الآية تبين مواقيت الصلوات الخمس. ذلك أن "الدلوك" لها ثلاثة مفاهيم، وكل مفهوم يدل على موعد إحدى الصلوات. فمن أول معاني "الدلوك" زوال الشمس من كبد السماء، وهذا موعد صلاة الظهر. ومعناها الثاني اصفرار الشمس، وهو موعد صلاة العصر. ومعناها الثالث غروب الشمس، وهو موعد صلاة المغرب. وأما "غَسَقُ الليلِ" فتعني ظلمة أوّلِ الليل، وهو موعد صلاة العشاء. وأما "قرآنَ الفجر" فـــفيه الأمر بصلاة الفجر، إذ ليس هناك تلاوة أخرى للقرآن هي فرضٌ وقتَ الصبح.

أما قوله تعالى: ﴿إن قرآن الفجر كان مشهودًا﴾ فقد روي عن النبي ﷺ أن ملائكة النهار تجتمع في صلاة الفجر وتصعد ملائكة الليل، فيسألهم ربهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلّون، وتركناهم وهم يصلّون.*

وفي رواية: "عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿وقرآنَ الفجر إن قرآنَ الفجر كان مشهودًا﴾: تشهده ملائكةُ الليل وملائكة النهار". (الترمذي: التفسير)

والمراد من هذا أن صلاة الفجر تُعرض على الله عرضًا خاصًّا، وتحظى بقبول حسن خاص، ذلك أن المرء يترك لأداء صلاة الفجر نومًا هادئًا لذيذًا. والحق أن صلاة الفجر إنما هي بمثابة صلاة التهجد بالنسبة للمسلم العادي، فلو أداها بصدق وأمانة لسهل عليه أداء الصلوات الأخرى.

* أقـــرب رواية بهذه المعنى هي: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: قال تجتمع ملائكةُ الليل والنهار في صـــلاة الفجر وصلاة العصر. قال: فيجتمعون في صلاة الفجر. قال: فتصعد ملائكة الليل وتثبت ملائكة النهار. قال: ويجتمعون في صلاة العصر. قال: فيصعد ملائكة النهار وتثبت ملائكة الليل. قـــال: فيســـألهم ربهم: كيف تركتم عبادي؟ قال فيقولون: أتيناهم وهم يصلّون، وتركناهم وهم يصلّون." (مسند أحمد ج ٢ ص ٣٩٦)

وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾

شرح الكلمات:

تَهجَّدْ: هَجَدَ الرجلُ يهجُد هُجودًا: نامَ بالليل؛ سهَر (الأقرب). تهجَّدَ القومُ: استيقظوا للصلاة أو غيرها (اللسان).

نافلةً: نفَل الرجلُ ينفُل نَفْلاً فلانًا: أعطاه نافلةً من المعروف مما لا يريد ثوابَه منه. نفَل الإمامُ الجندَ: جعَل لهم ما غنِموا. النافلة: الغنيمةُ؛ العطيةُ؛ ما تفعله مما لا يجب؛ ولدُ الولد (الأقرب).

التفسير: اعلم أن ضمير الغائب في قوله تعالى ﴿فتَهجَّدْ به﴾ عائد على القرآن الكريم، والمراد: على الإنسان أن يهتم بقراءة القرآن الكريم في صلاة التهجد اهتمامًا خاصًّا.

التهجد يعني الاستيقاظ من النوم. وهذا يعني أن النوم قبل صلاة التهجد ضروري. فالذين يرهقون أنفسهم ساهرين الليالي فإنهم لا يقومون بالعبادة، وإنما يُبطِلون ما يريده الشرع، ومثل هذه العبادة منافية لما يهدف إليه القرآن الكريم. كان النبي ﷺ ينام دائمًا في أول الليل ويقوم آخرَه لصلاة التهجد (البخاري: التهجد).

لقد أوضح الله تعالى هنا أن إتاحة فرصة العبادة منّةٌ ربانية على العباد. فيا أسفا على الذين يؤدّون الصلاة وكأنها غرامة عليهم. لقد قال النبي ﷺ إنما الصلاة زيارة العبد لربه؛ وزيارة الرب إنعام، إذ ليس هناك من عاقل يعتبر زيارة المحبوب غرامةً. لقد عرّف النبي ﷺ العبادة قائلا: "أن تعبدَ اللهَ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك" (مسلم: الإيمان).. أي إنما الصلاة الحقيقية أن تتمكن من رؤية الله، أو أن تكون على يقين – على الأقل – أنه يراك. إذَن فمن الظلم العظيم أن يُعتبر

مثل هذا الإنعام العظيم غرامةً. والحق أن الصلاة من أعظم النعم الإلهية، بل أؤمن أن الذي يترك صلاة واحدة لا يمكن أن يُعَدّ من المصلِّين، لأننا مأمورون بإقامة الصلاة، وإن إقامة الصلاة تستلزم المواظبة عليها؛ ولكن إذا تُركت صلاة واحدة لم يبق أي دوام ولا مواظبة.

وقوله تعالى ﴿نافلةً لك﴾ يمثّل إعلانًا من الله تعالى أن إتاحة فرصة العبادة منّةٌ إلهية على العباد.

أو من الممكن أن صلاة التهجد لم تكن واجبةً على الأنبياء السابقين، وعليه فيعني قوله تعالى لنبيه ﷺ ﴿نافلةً لك﴾ أن فرصة هذه العبادة إنعام خاص لك.

أما قوله تعالى ﴿عسى أن يبعَثَك ربُّك مقامًا محمودًا﴾ فيتضمن نبأً عظيمًا. ذلك أنْ لا أحد في الدنيا تعرَّض للسباب والشتائم بقدر ما تعرض لـــه نبينا ﷺ، بل ربما لم يتعرض حتى أكبر اللصوص الصعاليك الفَسَقة الفَجَرة في التاريخ الإنساني إلى واحد بملايين الملايين من السباب الذي تعرض له الرسول الكريم ﷺ إلى اليوم؛ وجزاءً على ذلك قد آتاه الله تعالى هذا المقام المحمود. يقول عزَّ من قائل: يا محمد، كما أن العدو لا يملّ من سبِّك، كذلك سوف أجعل المؤمنين يصلّون عليك على الدوام، بالإضافة إلى ثنائي عليك من العرش. فما قيمة سباب العدو إزاء هذه الصلوات والثناء.

ويعني "المقام المحمود" مقام الشفاعة أيضًا، إذ الثابت من الحديث أن كافة الأمم سوف ترجع إلى النبي ﷺ يوم القيامة يائسةً من أنبيائها، وتتوسل إليه، فيشفَع (البخاري: التفسير، الإسراء، قوله تعالى: ذرية من حملنا مع نوح). وكأن الله تعالى سيدفع هكذا سائرَ الأمم التي كانت تسب النبي إلى تعظميه ﷺ. ولا شك أن هذا مقام سامٍ جدًّا.

وعندي أن "المقام المحمود" إشارة إلى ظهور الإمام المهدي أيضًا. ذلك أن من علامات زمن ظهور الإمام المهدي إعراضَ المسلمين عن تعاليم الإسلام وتمادي الكفار في كفرهم، وفي مثل ذلك الوقت سيبعث الله ذلك البطلَ الذي سيوقف

مجرى تلك الشتائم والسباب ضد النبي ﷺ ويحوّلها إلى المدح والثناء، تحقيقًا للوعد الإلهي لنبيه ﷺ: ﴿عسى أن يبعَثك ربك مقامًا محمودًا﴾. وللإسهام في هذه الخدمة المباركة قد حدّدتُ يومًا في السنة للاحتفال بالسيرة النبوية، حيث يعبّر فيه الخطباء من شتى الديانات والمِلل عن انطباعاتهم القلبية حول سيرة الرسول الكريم ﷺ.

لقد ذكَر الله تعالى هنا المقامَ المحمود بعد الصلوات الخمس والتهجد، وفي هذا إشارة إلى أن الذي يرى أن أعداءه قد كثروا وأن الأشرار قد ازدادوا فليعلم أن علاج ذلك ليس أن يشتبك معهم، وإنما عليه أن يدرك أن هذه الفتن لن تزول عنه إلا بالإنابة إلى الله تعالى والابتهال على العتبة الإلهية؛ بل الواقع أن الابتهال أمام الله تعالى إذا بلغ المنتهى حوّل اللوم مدحًا والسبَّ دعاءً. وهذا ما حدث في زمن النبي ﷺ، حيث أصبح الذين كانوا يسبونه محبّين له صادقين. وأروع مثال على ذلك من بين الرجال هو مثال عمرو بن العاص وخالد وعكرمة، ومن بين النساء هند، إذ لم يذعن هؤلاء للنبي ﷺ إلا نتيجة أدعيته وابتهالاته، إذ كان من المحال لأي إنسان أن يمحو من قلوب هؤلاء ما انطوت عليه من الحقد والبغضاء ضده ﷺ.

يقول بعض الجاهلين: يبدو أن الناس كانوا يسبّون النبي (ﷺ) لهذه الدرجة لوجود عيبٍ فيه – والعياذ بالله!

وأقول: كلا. إنهم ما كانوا يسبونه لعيب فيه، وإنما لشمائله ومحاسنه. ذلك أنه لم يأت في الدنيا أي نبي جُعل أُسوةً حسنةً للناس أجمعين، ولذلك لم يتم حفظُ وقائع حياة أي من الأنبياء حفظًا كاملاً. هناك شخص واحد فقط بين زعماء أديان العالم كلها لا تزال وقائع حياته محفوظةً بكل تفاصيلها، وهو رسولنا الكريم ﷺ. كل حادث من حياته الشريفة من أكلٍ وشرب، ومشي وجلوس، وكلام وحديث، وحركة وسكون.. مسجَّلٌ في التاريخ. وكما أن الناس يبالغون في البحث والتنقيب عن تفاصيل حياة أحد كذلك ضبط الله تعالى أفكار النبي ﷺ

وأعماله ضبطًا دقيقًا، وقدّمها للعالم. أليس صمودُه ﷺ أمام الأعداء وإحرازُه التعظيمَ والاحترام في نظر العقلاء معجزة عظيمة؟ وإذا كانت هذه العزة التي حازها ﷺ بعد اختبار تام لا يمكن أن تسمَّى مقامًا محمودًا فليس في الدنيا أي عزة يمكن أن تسمّى مقامًا محمودًا!

الحق أن ما سُجِّل في يوم واحد من حياته الشريفة من أحداث لم يُحفَظ مثلُه من حياة سائر الأنبياء مجتمعين. فماذا عسى أن نجد من أحوال هذه الشخصيات وقد اكتنف حياتَها الغموضُ والخفاء بمرور الزمن. إذًا فليس من المعقول أن يتباهى أحد من أتباع الملل الأخرى زاعمًا أن نبيه لم يتعرض للطعن بقدر ما تعرض له نبي الإسلام!

وعندي أن الله تعالى قد قدّر لنبيه ﷺ مقاماتٍ محمودةً عديدة، وأن أول مقام محمود تبوأه النبي بعد نـــزول هذه الآية هو المدينة المنورة. ذلك أن استيطانه ﷺ بالمدينة تسبب في ذيوع صيته وانتشار ثنائه في العالم. والدعاء المذكور في الآية التالية أيضًا يشير إلى الأمر نفسه.

وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨١﴾

شرح الكلمات:

مُدخَل: المُدخَل: مصدرٌ ميميٌّ يقال: دخَل يدخُل دخولاً ومُدخَلاً، وأيضًا: أدخَلته إدخالاً ومُدخَلاً. وهو أيضًا: اسمُ مفعول، وظرفُ زمان ومكان (التاج).

صدق: الصدق: نقيضُ الكذب؛ الفضلُ؛ الصلاحُ؛ الجِدُّ؛ الشدةُ والصلابةُ. فإذا أضفتَ إليه قلتَ: رجلُ صدقٍ أي نِعْمَ الرجلُ (الأقرب). ويعبَّر عن كل فعلٍ فاضلٍ ظاهرًا أو باطنًا بصدقٍ، فيضاف إليه ذلك الفعل الذي يوصف به (المفردات). راجع للمزيد شرح الآية رقم ٤ من سورة يونس.

التفسير: يقول الله تعالى لنبيه ﷺ مشيرًا إلى أول المقامات المحمودة التي سينالها نتيجة دعائه وإنابته: سوف نخرج بك الآن – وفقًا للنبأ المذكور في حادث الإسراء – من مكة إلى مكان آخر سيكون مقامًا محمودًا لك؛ فعليك أن تنهمك من الآن في الدعاء والابتهال لهذا الأمر، وقل: يا ربِّ، أَدخِلْني في تلك المدينة بحيث يكون دخولي فيها مباركًا في الظاهر والباطن، كما أَخرِجْني من هذا المكان الذي أنا مقيم فيه حاليًا أي مكة بحيث يكون خروجي أيضًا مباركًا ظاهرًا وباطنًا.. أي لا تدَعِ الكفار ينجحون في نواياهم لأنهم يريدون طردي من الوطن ذليلاً مهانًا بحيث لا يبقى لي أي تأثير وكرامة بين القوم.

وبالفعل استجاب الله هذين الدعاءين لنبيه ﷺ، إذ لم يتمكن الكفار من طرده على الوجه الذي أرادوه، وإنما هاجر هو بنفسه من مكة إلى المدينة في موعد مناسب بناءً على توجيه إلهي. كما أن دخوله ﷺ في "المقام المحمود" أيضًا كان دخولا مباركًا للغاية، حيث خلق الله تعالى هناك آلافًا من الفراشات الروحانية التي ما برحت تطوف حول شمعة طلعته ﷺ البهية، وتتطلع دائمًا إلى وجهه النوراني، والتي بلغ وَلَهُها به حدًّا لا نجد له نظيرًا في العالمين.

قد يعترض أحد على هذا المفهوم ويقول: كان خروج النبي ﷺ من مكة قبل دخوله في المدينة، فلماذا ذكر القرآن الدخول قبل الخروج؟ وجوابه: إن نبأ الخروج كان لا بد وأن يؤلمه ﷺ لعدم علمه بمقامه الجديد بعد خروجه من مكة؟ فقدّم الله خبَر الدخول على خبر الخروج رأفةً منه بنبيه الكريم، فزفّ له البشرى أوّلاً أنك ستصل إلى مقام مبارك عن قريب، ثم ذكر له الخبر المؤلم قائلاً: سوف تضطر للخروج من مكة.

وهناك معنى آخر محتمل لهذه الجملة، وهو أن يكون الدخول إشارة إلى دخوله ﷺ في مكة فاتحًا، بينما يعني الخروج هِجرتَه منها. وهنا أيضًا يواجهنا نفس الاعتراض عن الترتيب لأن الهجرة كانت قبل الفتح لا بعدها؟ والجواب هو

الجواب نفسه أنه تعالى زَفَّ له بشرى الفتح أوّلاً ليخفف عنه ﷺ وطأة صدمة الهجرة. وسيعني المقام المحمود- على ضوء هذا المعنى- أنه بعد الفتح ستزول كل مطاعن الأعداء، وسيتجلى صدقه ﷺ على العرب. وهذا ما حدث بالضبط.

وقوله تعالى ﴿واجْعَلْ لي مِن لدنك سلطانًا نصيرًا﴾.. أي هَبْ لي من لدنك غلبةً تعينني على إنجاز مهماتي، ولا تعوقها. ذلك أن من الانتصارات ما يجلب على صاحبها الأضرارَ بدل المنافع؛ فعُلّم ﷺ دعاء: يا ربِّ، أَعْطِني الغلبة التي تعينني على إنجاز مهمّاتي ولا تعوقها.

هذا الدعاء يؤيد ما بيّنتُه من قبل من معنى الإسراء النبوي، ويوضح أن من تعبير هذا الإسراء هجرة النبي ﷺ إلى المدينة.

وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨٢﴾

شرح الكلمات:

زهَق: زهَق الباطلُ: اضمحلَّ. زهَق الشيءُ: بطُل؛ هلَك (الأقرب)

التفسير: تضمنت هذه الآية الإشارةَ إلى أنه ببداية الفترة المدَنية سيزداد النبي ﷺ قوة إلى قوة، والعدو ضعفًا إلى ضعف، وسيضمحلّ الباطل يومًا بعد يوم حتى يهلك، وسيُقضَى على الوثنية في الجزيرة العربية بفتح مكة قضاء نهائيًّا؟

من مزايا القرآن الفريدة أنه في كل مناسبة يختار كلمات ذات مدلولات عميقة بعيدة المدى. فمثلاً اختار هنا فعل ﴿زَهَقَ﴾، بدل (هلَك) أو (بطُل)، لأن الفعلين الأخيرين لا يدلان على دمار تدريجي للباطل كما يدل عليه ﴿زهَق﴾، إذ يدل الزُّهوق على تطرق الضعف والاضمحلال شيئًا فشيئًا، إلى أن يتم الهلاك. وهذا بالضبط ما حصل بأهل مكة، إذ لم يصبهم الدمار دفعة واحدة، بل دب فيهم الضعف بالتدريج، إلى أن هلكوا تمامًا. إذن فكلمة ﴿زهق﴾ تبين أسلوب هلاكهم.

لما كسر النبي ﷺ الأصنام الموضوعة في الكعبة يومَ الفتح قرأ هذه الآية نفسها. كان يوجّه الضربات إلى الأصنام صنمًا بعد صنم ويردد: ﴿جاء الحق وزهَق الباطل، إن الباطل كان زَهوقًا﴾. (البخاري: كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح)

إنه لمن معجزة الفصاحة القرآنية أن الآية التي نزلت بصدد إزاحة الأصنام عن الكعبة المشرفة جاءت موزونةً كالشعر، مما يتلاءم مع تلك المناسبة تمامًا، لأن الإنسان يميل بطبعه إلى الشعر في المناسبات السارة. مما لا شك فيه أن القرآن الكريم ليس بشعر، ولكن هناك أجزاء من آياته هي موزونة كالشعر. فهذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها إذا حذفنا منها كلمة ﴿قُلْ﴾ صارت شعرًا موزونًا كالآتي: جاء الحقُّ وزهَق الباطلْ إن الباطل كان زَهوقًا

فكلمة ﴿قُلْ﴾ التي تكتمل بها الآية أخرجتها من صنف الشعر، ولكن لما حان وقت ترديدها كان على النبي ﷺ أن يقرأها بدون ﴿قُلْ﴾ لتنفع – بالإضافة إلى معانيها الرائعة – ككلام موزون يتلاءم تمامًا مع مناسبة الفتح السارة.

تصوَّروا روعة المشهد حين يكون الصحابة قد أخذوا يرددون هذه الآية في نشوة روحانية عارمة وقد رأوا النبي ﷺ يرددها، ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم. لا جرم أنه لا يمكن أن يقدر ذلك إلا صاحب ذوق.

وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾

شرح الكلمات:

خسارًا: خسِر الرجلُ في بيعه: ضدُّ ربِح؛ وخسِر الرجلُ: هلَك (الأقرب).

التفسير: وهذا يعني أن الشيء الواحد يمكن أن يُرى بصور مختلفة من زوايا مختلفة، ويُرى بحسب فطرة الإنسان الناظر إليه. ومهما بلغ كلام ما من السمو والرفعة فإن صاحب القلب النجس سوف يراه كلامًا نجسًا. وإنني أُصاب

بالدهشة حين أرى أن الباندت ديانند لا يجد في القرآن الكريم إلا العيوبَ والمثالب فقط، ولا يجد فيه أي مزايا ومحاسن (ستهيارت بركاش (طبعة أردية) باب ١٤). وهذا ما يؤكده الله هنا بأن الظالمين يعيبون القرآن الكريم، فيزدادون إثمًا على آثامهم السابقة.

وهناك مفهوم آخر لهذه الآية في رأيي، وهو أن المراد من "القرآن" هنا ذلك الجزء الخاص منه الذي فيه أنباء عن نجاح المؤمنين وهلاك الكافرين. فالله تعالى يخبر هنا أنه قد آن الأوان لتحقيق هذه الأخبار، لتندملَ جراحات المؤمنين وتُشفَى قلوبهم الدامية، وتتيسر لهم أسباب الرقي، وليزداد الكافرون خسارًا ودمارًا.

وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٤﴾

شرح الكلمات:

نَأَى: بَعُدَ (الأقرب). فالمراد من قوله تعالى ﴿نَأَى بجانبه﴾ أنه أبعدَ جانبَه.

يَؤُوسًا: اليؤوسُ: القَنِطُ (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى: هناك بون شاسع بين المؤمن والكافر. لقد تعرض المسلمون لأنواع المحن والشدائد ثلاث عشرة سنة على التوالي. لقد ضُربوا وعُذِّبوا، ومع ذلك لم يتأفَّفوا. وأما الكافرون فلن يلبثوا أن يستسلموا وييأسوا حين يحيطهم العذاب وتتيسر للمؤمنين أسباب الغلبة والازدهار. ذلك أن الكافر لا يؤمن بالله تعالى، فيستولي عليه الذعر لدى أدنى ضرر يصيبه، ولكن المؤمن يتحمل كل أذًى بشجاعة وبسالة ابتغاءَ مرضاة الله تعالى.

قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٥﴾

شرح الكلمات:

شاكلته: الشاكلة: الشكلُ؛ الناحيةُ؛ النيةُ؛ الطريقةُ؛ المذهبُ؛ الحاجةُ (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى هنا لنبيه ﷺ: قل للمنكرين إن كل امرئ يعمل بأسلوبه وكفاءته ودينه ونيته. ولما كانت نية المؤمن الفوز بالله تعالى فلا يحزن على ضياع دنياه، وإنما يصمد في وجه المحن والاختبارات بصبر وجلد. أما الكافر فلأنه عابدٌ لِدُنياه، وعاملٌ للمنفعة المادية فحسب، لذلك يصاب بالذعر والهلع وينهار حين يرى دنياه تنفلت من يده. فالله تعالى ينبه هنا أن ربكم أدرى بمن هو عامل بما يؤدي إلى الهدى، بمعنى أنه ﷻ يعامل الإنسان حسب نيته، فلسوف ينظر إلى العمل وكذلك إلى النية، ثم يجزيه بحسبهما. فمن ابتغى رضوان الله تعالى، وضحّى في سبيل دينه، لقي نصرًا وتأييدًا منه ﷻ.

لقد فسّرتُ الآيات السالفة على أن الخطاب فيها موجه إلى مشركي مكة، ولكن الواقع أنها تنطبق على المشركين واليهود في آن واحد. فاليهود أيضًا ناصبوا النبي ﷺ العداء وقاوموه بعد هجرته إلى المدينة، فهلكوا في آخر المطاف، حتى صفت الجزيرة العربية أخيرًا من وجودهم بعد وقعة خيبر. لقد ادّعوا ادعاءات واسعة بكل زهو وكبرياء، ولكن لما هبّ المسلمون للدفاع مضطرين ألقى اليهود السلاح في منتهى الجبن بحيث سيَظلّ التاريخُ يضرب المثلَ بالجبن اليهودي على مرّ الأجيال. (تاريخ الخميس الجزء الثاني ص ٥٢)

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٦﴾

شرح الكلمات:

الروح: راجِعْ شرح كلمات الآية رقم ٣٠ من سورة الحجر.

التفسير: ما هي هذه الروح التي أثير حولها السؤال هنا؟ لقد قال المفسرون في شأنها أقوالاً شتى منها: المراد منها جبريل، أو القرآن الكريم، لأن الحديث قبل هذه الآية وبعدها يدور عن القرآن (البحر المحيط). وقال بعضهم أن المراد من الروح هنا المَلَك الذي وُكّل إليه خلق الدنيا؛ أو أي ملَكٍ لأن كل ملَك رُوحٌ. وقال الآخرون أنه ملَك خاص قد خلقه الله تعالى للتسبيح فقط، حتى نسب بعضهم هذه الرواية إلى الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – وقالوا أن لهذا المَلَك مائةَ رأس، وفي كل رأس مائة فم، وفي كل فم مائة لسان، ويسبّح كلٌّ لسان بمائة لغة. (الطبري).

وربما ظن من نقل هذه الرواية الأخيرة أن هذه هي الطريقة المثلى لأداء حق التسبيح! ولكن الحق أن أمة النبي ﷺ تقوم بتسبيح أكثر من هذا. إن المسلمين موجودون في كل قطر من أقطار العالم، ويتكلمون آلافًا من اللغات، ويقومون بالتسبيح في كل لغة!

وكان أستاذي المحترم حضرة المولوي نور الدين رضي الله عنه يرى أن المراد من الروح هنا الوحي الإلهي (تصديق البراهين الأحمدية ج ٢ ص ٣٣١-٣٣٢). وهذا المعنى أصح وأفضل بكثير من المعاني المذكورة أعلاه، لأن الحديث من قبل ومن بعد يدور حول القرآن الكريم.

أما مؤسس الأحمدية سيدنا المسيح الموعود عليه السلام فقد تناول هذه الآية بالبحث المستفيض، موضحًا أن الروح المذكورة هنا هي الروح الإنسانية، وقد ذكر بهذا الصدد معارف عظيمة (جشمه معرفت – أي ينبوع المعرفة – الخزائن الروحانية، ج ٢٣، ١٥٩).

وقد تضاربت الآراء عمن سأل النبيَّ ﷺ عن الروح؟ فقال قوم: هم يهود المدينة (الترمذي: أبواب التفسير). فقيل: ولكن هذه السورة مكية؟ فأجابوا: إن بعضًا من آياتها مَدَنية.

ولكن هذا غير صحيح كما بيّنتُ من قبل.

وقال الآخرون: لقد وُجِّه هذا السؤال أولاً بمكة ثم بالمدينة (مسند أحمد ج ١ ص٢٥٥). ففي رواية عبد الله ابن عباس أن النبي ﷺ سئل عن الروح في المدينة (الترمذي: التفسير). ولكن الغريب أن ابن عباس نفسه يقول إن هذه السورة مكية! (القرطبي). ولقد أجاب عليه العلماء أن السؤال قد أُعيد في المدينة أيضًا.

فأما الذين يرون أن النبي ﷺ سئل عن الروح في مكة فيزعمون أن بعض المكيين ذهبوا إلى المدينة، وقالوا لليهود: إن شخصًا عندنا قد ادّعى النبوة، أعطُونا شيئًا نسأله عنه حتى ينكشف على الناس كذبه؟ فقالوا: سَلُوه عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين. فرجعوا، وسألوا النبي ﷺ، فنـــزلت الآية. (روح المعاني، ودلائل النبوة للبيهقي: باب ذكر أَسْوِلَتهم رسولَ الله ﷺ بمكة)

وعندي أن السؤال تم بمكة أول الأمر، وأجيب عليه هناك. وربما سأله يهود المدينة أيضًا السؤال نفسه، بل هذا هو الأغلب، لأنهم الذين حرّضوا المكيين على أن يسألوا النبي ﷺ هذا السؤال فلا بد أن يوجّهوه إليه ﷺ بأنفسهم. ولكني لا أرى أن هذه الآية نزلت مرة ثانية عند سؤال اليهود بالمدينة، بل يكون النبي ﷺ قد قرأ عليهم هذه الآية التي سبق نزولها بمكة ردًّا على سؤالهم. فربما الراوي الأول نقل هذا الحادث هكذا، ولكن أحدًا من الرواة اللاحقين ظن أن الآية نزلت بالمدينة ردًّا على اليهود.

بعد بيان حقيقة السؤال أتحدث الآن عما أجاب به القرآن. يقول المفسرون أن الله تعالى أسهب في الجواب عن أصحاب الكهف وذي القرنين، ولكنه تعالى أوجز في الإجابة عن الروح مكتفيًا بقوله: إن الروح تكون من أمر الله تعالى، و لم تُؤتَوا عن الروح إلا علمًا ناقصًا، فلا تستطيعون إدراك حقيقة الروح، ولذلك لا نجيب عليكم بالتفصيل؛ ولدى سماع هذا الجواب سُقِط اليهود في أيديهم وصمتوا. (روح المعاني)

لقد أثار الكتّاب الآريون الهندوس كثيرًا من الاعتراضات على جواب القرآن هذا، وقالوا: ليس في هذا الجواب ما يجعل اليهود يخجلون، إذ لم يكن جوابًا معقولا مفحمًا (كليات آريا مسافر – تكذيب البراهين الأحمدية – ج ١ ص ٣٣١).

لقد سبق أن ذكرتُ أن أستاذي المحترم حضرة المولوي نور الدين ﷺ فسّر الروح هنا بالوحي الإلهي، وقال: إن القرآن يعلن هنا أن الوحي ينـــزل بأمر الله تعالى، والداعي لنـــزول الوحي هو أنكم لم تُؤتَوا من العلم إلا قليلا. فنقص العلم الإنساني استلزم أن يُكمل الله علم الإنسان في الروحانيات بإعلام من عنده، ولذلك أنـــزل الوحي.

ولقد سبق أن ذكرت أن بعضًا من المفسرين القدامى قد فسّروا الروح هنا بالقرآن (البحر المحيط)، وقولهم هذا مشابه لما ذكره أستاذي المولوي نور الدين، غير أن حضرته فسّر الروح بالوحي؛ وهذا المعنى أشمل وأوضح مما ذكره المفسرون الآخرون، كما أنه أكثر ملاءمةً للسياق.

لطالما رأيتُ أن هذا هو المراد من الروح هنا، إلى أن قرأت بعضًا من أقوال مؤسس الأحمدية سيدنا المسيح الموعود عليه السلام قراءة عميقة، فعدّلتُ رأيي بعض الشيء، وأدركت أن هذه الآية تشير إلى الروح الإنسانية أيضًا. ونظرًا إلى هذا المعنى تصبح مفاهيم هذه الآية واسعة ولطيفة للغاية.

يقول سيدنا المسيح الموعود عليه السلام: إن خلق الله تعالى نوعان؛ أولهما: الخلق الابتدائي أي ما يخلقه اللهُ مِن غير أية مادة، وثانيهما: الخلق الثاني أي الذي يتم

من مادة مخلوقة سلفًا بيد الله تعالى، حيث يسخّر الأسباب المادية الموجودة قبل إيجاد ذلك الشيء. وهذا النوع الثاني يسمّى خلقًا، وأما الأول الذي يتم من دون مادة فيسمّى أمرًا، كما تشير إليه كلمة ﴿كُنْ فيكون﴾. والآية التي نحن بصددها تتضمن الجواب عن هذا الخلق الذي يتم بمجرد الأمر الإلهي.

وأضاف حضرته عليه السلام: لو أن أحدًا من الآريا الهندوس اعترض على قولي هذا فسوف أؤلف ردًّا عليه كتيبًا أدوّن فيه ما بيّنه القرآن الكريم من قوًى وطاقات للروح الإنسانية (سرمة جشم آريا، الخزائن الروحانية ج ٢ ص ٢٣٣). وللأسف لم يتقدم أحد من الآريا لقبول هذا التحدي، وهكذا حُرمنا من هذا الكنـــز العظيم الذي كنا سنقتنيه مجانًا. ومع ذلك نجد في كتبه عليه السلام ما لا بأس به من المعلومات عن الروح. ولعل الله أجّل – لحكمة من لدنه – باقي المعلومات لزمن آخر.

أقوم الآن بتفسير هذه الآية حسبما فهمت على ضوء المعنى الذي ذكره مؤسس الأحمدية، وكلي ثقةٌ أن كل من يتدبر في هذه المفاهيم خاليًا من التعصب سيدرك أن الله تعالى لم يترك سؤال اليهود بدون جواب، بل ردّ عليهم بجواب لطيف ومفحم تمامًا. كما سيتبين من ذلك أن الذين اعتبروا الروح هنا بمعنى الوحي الإلهي أو القرآن أيضًا لم يجانبوا الصواب، بل أصابوا كبدَ الحقيقة.

الحق أن الآيات السابقة تبيّن فضل القرآن وضرورته، بل ما زالت السورتان الماضيتان.. أعني الحِجر والنحل.. تركّزان على الموضوع نفسه، وتسوقان الأدلةَ– كما برهنتُ – على ما في القرآن من محاسن وقدرات. وأما هذه السورة.. الإسراء.. فهي أيضًا تبين أن اليهود ازدهروا ما داموا عاملين بكلام الله تعالى، ولكنهم لما أعرضوا عن كلام الله تعالى حل بهم العذاب. كانوا يظنون أنهم إنما عُذِّبوا لانتهاكهم حرمة السبت، فلما سمعوا إعلان القرآن بأنهم ما عذِّبوا إلا لإعراضهم عن "كلام الله" استغربوا من ذلك، بل استاءوا منه جدًّا، لا سيما أن المسيحيين أيضًا كانوا يعلنون عن المسيح أنه "كلمة الله".

ثم إن اليهود كانوا مصابين بنقيصة أخرى تصاب بها الأمم اليائسة عمومًا وهي أنهم لما حُرموا من الوحي وانقطعت النبوة فيهم مالوا إلى التصوف الباطل، وانشغلوا بطقوس وتمرينات مختلفة، ظانين أنها ستزيد قواهم الروحانية. فمنهم من حاول صقل قواه الروحانية بترديد أذكار معينة، ومنهم من سعى لذلك بمحاولة الاطلاع على "الاسم الأعظم". كانوا جميعًا يحسبون أنهم بذلك قد سدُّوا النقصَ الذي حصل فيهم نتيجة انقطاع الوحي عنهم.

لقد دَهَمَهم هذا المرض في زمن داود عليه السلام، وتفاقمَ في عصر المسيح عليه السلام. كانوا يرون أنه بإمكان الإنسان أن يأتي بمعجزات عظيمة ويعلم الغيبَ إذا ما سيطرَ على الأرواح أو صقَل روحَه هو. وكانوا يقسمون هذا العلم إلى قسمين: أولهما حلال، وأرجعوه إلى الاسم الأعظم، وثانيهما حرام، وعزَوه إلى بعل (الموسوعة اليهودية ج ٢ ص ٦٢٩). ولما أعلن المسيح عليه السلام دعواه وأراهم المعجزات عزَوا معجزاته إلى بعل هذا. وقد سجّل الإنجيل هذا الأمر كما يلي: "وأما الكَتَبَة الذين نـــزلوا من أورشليم فقالوا: إن معه بَعْلَزَبُول، وإنه برئيس الشياطين يُخرج الشياطينَ. فدعاهم وقال لهم بأمثال: كيف يقدر شيطان أن يُخرج شيطانًا." (مرقس ٣: ٢٢ و٢٣)

ونفس المعنى مذكور أيضًا في: متى ٩: ٣٤، و١٠: ٢٥، لوقا ١١: ١٥، يوحنا ٧: ٢٠، و ٨: ٤٨ – ٥٢، و١٠: ٢٠.

والحق أن بعل زبو أو بعل زبول أو بعل زبوب أسماء لإله كانت تعبده إحدى الأمم المجاورة لليهود، وكان الناس يعزون إليه بعض المعجزات؛ فلما مال اليهود إلى السحر ظنوا أن بعل هو رئيس العالم السفلي، وأن الناس إنما يأتون بالمعجزات مستعينين ببعل (انظر المراجع السابقة، وأيضًا الموسوعة التوراتية، والموسوعة اليهودية كلمة Beelzebul or Beelzebub).

أما ما صقله اليهود – بزعمهم – من قواهم الروحانية فعزَوه إلى "الاسم الأعظم"، واعتبروه سحرًا حلالاً. فقد ورد في الموسوعة اليهودية أن "الاسم

الأعظم" كان رائجًا في اليهود قبل المسيح بثلاث مائة سنة على الأقل- غير أن بحثي يؤكد أن هذه الفكرة تسربت إليهم زمن داود وبلغت ذروتها زمن سليمان- وكانوا يشيعون بين القوم أنه يستحيل النطقُ بـــ "الاسم الأعظم". وكان سَحَرَة اليهود، الموجودون خاصة في مصر، يكتبون هذا الاسم برموز معينة. (الموسوعة اليهودية كلمة Names of God)

كان اليهود يرون أن كلا من السحر الأبيض والسحر الأسود أمر حق، وأن السحر الأسود يتعلَّمه الإنسان بواسطة الشياطين، أما الأبيض منه فبواسطة الأسماء الإلهية؛ وأن الأسود حرام، والأبيض حلال. فقد ورد أن علماء اليهود عارضوا السحر الأسود، ولكنهم لم يروا بأسًا في اللجوء إلى السحر الأبيض لمحاربة السحر الأسود، واكتسبوا - في زعمهم - بالسحر الأبيض من المهارة والقوة بحيث أحرقوا العدو بنظرة واحدة وتركوه رمادًا، أو حوّلوه هيكلاً من العظام، كما كانوا يشفون به المرضى. وقد لقيت هذه الأمور رواجًا كبيرًا بينهم حتى سماهم اليونان والرومان سَحَرَةً (الموسوعة اليهودية كلمة MAGIC).

كما اعتقد اليهود أنه بإمكان الإنسان أن يعرف علم الغيب بالاتصال بأرواح الموتى. وقد جاء النهي عن هذه الممارسة في التوراة في تثنية ١٨: ١١، وفي أماكن أخرى أيضًا. كما تحدثت التوراة عن أولئك الذين يعرفون الغيب بمناجاة الأرواح، ونهت عن الاختلاط بهم. يقول إشعياء: إذا قالوا لك أن تتصل بمثل هؤلاء فقل: "أيُسأل الموتى لأجل الأحياء؟" (إشعياء ٨: ١٩)

وورد أن اليهود تعلمّوا هذا الفن من الفرس على الأغلب إذ كان له رواج كبير بينهم (الموسوعة اليهودية تحت Necromancy).

وبالاختصار كان اليهود يعتقدون أن معرفة الغيب ممكن بالاتصال مع الأرواح، وكانوا يتعلمون هذا الفن بكثرة ويعملون به مع أنهم قد نُهوا عن ذلك.

وقد لقي هذا العلم رواجًا واسع النطاق في عصرنا هذا أيضا، ويسمَّى أصحابه في الغرب بالأرواحيين (Spiritualists)، والجمعية الثيوصوفية تتأسست على هذا

العلم نفسه. وكانت السيدة أيني بسنت (Mrs. Annie Besant) – التي أسست مؤسسة الجمعية الثيوصوفية الحالية – تدّعي أنها تتعلم الكثير بمناجاة الأرواح، وتدلي بكثير من أنباء الغيب، فقد أنبأت بظهور مصلح كبير مستعينةً بهذا العلم– في زعمها – وأن الشاب "كرشنا مورتي" هو المصداق لهذا النبأ. علمًا أن ما يدعو إليه هذا الشاب في هذه الأيام يماثل الإلحاد إلى حد كبير.

(Krishanamurti By Mary Lutyens P. I-١٥;
The New Encyclopedia Britannica & The Encyclopedia of Religions, & The Encyclopedia Americana & Every Man's Encyclopedia, under: Krishanamurti & Theosophy)

لقد شُغف كثير من الناس في أوربا بهذا العلم نتيجة موت كثير من الجنود الشباب لعائلات كثيرة في الحرب العالمية الماضية، وقد أنفَدَ الكاتب الشهير السير كينن دائل Sir CANAN DOYLE عمرَه في تعلُّم هذا الفن من أجل أحد أبنائه. وكان الكاتب والسياسي المعروف W. T. Studd يحمل الأفكار نفسها، ونشر كتابًا حول تجاربه الشخصية في هذا المجال. كما أن العالم الذائع الصيت السير أوليور لاج (Lodge) مال في آخر عمره إلى اعتقاد أن مناجاة الأرواح ممكن، وقد ألّف في هذا الشأن عدة كتب. (CANAN DOYLE P. ١٤٠-١٥٠ والموسوعة البريطانية الجديدة كلمة Lodge)

وهـــذا العـــلم مـــتداول بين الهندوس باسم "اليوجا"، وقد ورد بصدده بحث مستفيض في كتاب لهم باسم "شاستر اليوجا" لـِ "بتنجلي"(موسوعة الأديان والأخلاق تحت Yoga).

ولقد اتجه متصوفة المسلمين أيضًا إلى هذا العلم زمنَ انحطاطهم، وألفوا الكثير من رطب ويابس باسم "علم الإشراق، وعلم الحاضرات" وغيرهما من الأسماء، واستعانوا بهذا العلم المزعوم. (التبيان في مسائل السلوك والإحسان المعروف بدلائل السلوك ص ١٥١– ١٦٩، ومعارف الطريقة ص ٥٨– ٦٢)

وبالاختصار إن مناجاة الأرواح علم قديم، وكان له رواج كبير بين اليهود، لا سيما حين ضعفت صلتهم بالدين، وانغلق في وجههم باب الوحي، فمالوا إليه

ميلا عظيمًا. وكان إقبالهم عليه زمنَ المسيح الناصري عليه السلام على أشده، حيث وُجدت في زمنه فرقة يهودية باسم الأسينيين، وقد أشير إليها في الإنجيل باسم الفريسيين، ويرى البعض أن المسيح كان ينتمي إلى هذه الفرقة. وقد تم العثور على نسخة قديمة لكتاب في ألمانيا ادعى فيه أحد الأسينيين أن المسيح كان من فِرقتهم.

لقد سجِّلت وقائع حياة المسيح في هذه النسخة بصورة غريبة، كما ورد فيها أنه عليه السلام نـــزل من الصليب حيًّا. راجع الكتاب The Crucifixion By An Eye Witness V. ٢ P. ٣٦، وهو موجود في مكتبتي أيضًا.

لقد ورد في الموسوعة البريطانية عن هؤلاء أنهم كانوا يصومون، ويعيشون عيشةً طاهرةً، وكانوا يُخبرون بالغيب، ويأتون بالمعجزات. فقد كتب عنهم فيلو (Philo): يجب ألا نرتعب من سحرة الأمم الأخرى، إذ يوجد بيننا أيضًا أمثالُهم، ثم يقدم الأسينيين كمثال على دعواه.

ويقول يوسيفوس المؤرخ اليهودي الشهير أنهم كانوا يتنبأون، ويُخبرون الغيب. وورد عنهم أنهم كانوا يقومون بتأمُّلات طويلة خلال العبادة لكي يتم لأرواحهم الاتصال بالأب السماوي. وكان زعماؤهم يدّعون بمعرفة "الاسم الأعظم"، الذي يحتوي على ٤٢ حرفًا في زعمهم، ويفضلون العيش بعيدًا عن النساء، لكي ينـــزل عليهم الإلهام أكثر (الموسوعة البريطانية كلمة Essenes).

ويبدو أن يهود المدينة كانوا ينتمون إلى هذه الفرقة نفسها. فقد ورد في الحديث أن أحد اليهود – هو عبد الله بن صيّاد – كان يدّعى معرفة الغيب ويدلي بالأنباء. فلما بلغ ذلك النبيَّ ﷺ ذهب لاختباره، وقال له: "إني قد خبّأتُ لك خبيئًا؟" قال ابن صياد: هو الدُّخُّ. قال له رسول الله ﷺ: اخْسَأْ، فلن تَعْدُوَ قدرَك. فقال عمر بن الخطاب: ذَرْنِي، يا رسول الله، أَضرِبْ عنقَه؟ فقال له رسول الله ﷺ: إنْ يَكُنْه فلن تُسلَّط عليه، وإن لم يَكُنْه فلا خير لك في قتله" (مسلم، كتاب الفتن).

والمراد من قوله ﷺ: "فلن تعدُوَ قدرَك" أن أساس علمِك العقلُ، ولا تستطيع معرفة الأنباء الإلهية.

وقد استأذن عمرُ النبيَّ ﷺ لقتل ابن صياد لأن الصحابة يرون أنه الدجال، ولكنه ﷺ نهاه عن ذلك قائلا: إن كان هو الدجال فلن تقدر على قتله، وإذا لم يكن هو الدجال فلا يجوز قتله.

تؤكد هذه الرواية أيضًا أنه كان بين يهود المدينة قوم يدّعون مناجاة الأرواح، وهذا يدل على أنهم كانوا من الفرقة الأسينية.

بعد هذه المقدمة أقول: لما عجز الكفار إزاء ما جاء في القرآن من أنباء الغيب استعانوا باليهود، فقال لهم اليهود: لكي تفضحوا محمدًا سَلُوه عن الروح، أي عما أُودع في الروح من قوًى وقدرات. وكان بنيّتهم أنه ﷺ لو أجاب بأن الروح تتمتع بقدرات خارقة تستطيع بها معرفةَ الغيب لقلنا له: فكيف نصدّق إذن أن معارف القرآن هي من عند الله تعالى؟ لماذا لا نقول: إنها نتاج تمارينك الروحانية. أما إذا أجاب بأن الروح عارية عن أية قدرات كهذه لسقنا البراهين على جهله بهذه الحقيقة. فكأن القرآن ليس – في رأيهم – إلا حصيلة تمارين روحانية عقلية فحسب!

وهناك في القرآن الكريم دليل على أن عقيدة مناجاة الأرواح كانت سائدة بين اليهود في زمن النبي ﷺ. فقد تحدث القرآن الكريم في سورة الجن عن جماعة مؤمنة بموسى – وقد أثبتُ من قبل أنّ هؤلاء الجن كانوا بشرًا – ثم نَقَلَ قولَهم: ﴿وأنّا كنّا نقعُد منها مَقاعدَ للسمع﴾(الجن: ١٠).. أي كنا نقعد لنصغِي إلى السماء، بمعنى كنا نجلس جلسات تأملية لمعرفة الأخبار السماوية.

والحق أنه كان من واجب القرآن أن يلقي الضوء على هذه القضية حتى ولو لم يسأل اليهود عنها، لأن هذه العقيدة تمثل في الواقع هجومًا على سائر الأديان الحقة، إذ توهم بأن الإنسان يستطيع معرفة معالم الهداية بمساعدة الأرواح دونما حاجة إلى الإعلام الإلهي – مثلما يدّعي بذلك الثياصوفيون – وأن أي واحد

قادرٌ على معرفة الغيب من خلال التمارين الروحانية المزعومة. أقول: لو كان هذا صحيحًا لارتفع الأمان واليقين عن الدين أصلاً!

ويردّ القرآن الكريم على هذه المزاعم بقوله تعالى ﴿قُلِ الروحُ مِن أمر ربي﴾.. أي قُلْ لهم، يا محمد، إن الروح الكاملة أي التي يتيسر لها الوصال الحقيقي بالله تعالى، والتي تُطلَع على بعض العلوم الغيبية، إنما تكون ﴿مِن أمر ربي﴾.. أي تأتمر بأمر الله تعالى، بمعنى أنه يستحيل أن تحرز أيةُ روحٍ الكمالَ من دون إذن ربها، وأنه باطل كل ما تصفونه لكمال الروح من تمارين وسحر ويوجا، لأن الروح إنما تحرز الكمال بأمر من عند الله تعالى فحسب.

وكأن الروح هنا جاءت بمعنى الروح الكاملة التي تتحلى بالصفات الروحانية حقًّا، مثلما جاءت كلمة الحمد في مستهل القرآن في قوله تعالى ﴿الحمد لله﴾ بمعنى أن الحمد الكامل المتصف بكل الصفات المستوجبة للحمد خاص بالله وحده. لقد أخبر الله هنا أنه خص نفسه وحده بعملية كمال الروح الإنسانية، ولا تقدر أية روح أن تحرز الكمال من دون إذن ربها، مهما مارس صاحبها من تمارين "اليوجا" أو تحمل المشاق الأخرى. وخير مثال على ذلك في هذا العصر هو شخصية كرشنا مورتي. فقد ربّت السيدةُ "أيني بسنت" هذا الشاب وأخاه تربية خاصة وفق مبادئ "اليوجا"، حيث ظلا تحت رعاية كبار الأساتذة لهذا الفن، لكي يوجّهوهما إلى الجهة السليمة من خلال قوة "اليوجا". ولكن ماذا كانت النتيجة؟ كان الأخ الأكبر يشكو دائمًا بأنهم قد ألقونا في السجن، ويمارسون علينا الجبر والإكراه بلا طائل. وأما الأخ الأصغر- الذي اختير بعد تمرّدَ الأخ الأكبر - فيعارض أفكار السيدة أيني بسنت علنًا! للتفاصيل راجِع المصادر التالية:

(Krishanamurti By mary Lutyens P. I-١٥; The New Encyclopedia Britanica & The Encyclopedia of Religions, & The Encyclopedia Americana & Every Man's Encyclopedia, under: Krishanamurti & Theosophy)

ولو قيل: إن إعلان القرآن هذا ليس إلا دعوى فحسب، ولا يمكن اعتباره ردًّا شافيًا، فجوابه: أن قول الله تعالى ﴿قُلِ الروحُ من أمر ربي﴾ ليس إلا إعلانًا مبدئيًّا، لأن الرد الحقيقي يبدأ بقوله تعالى ﴿وما أُوتيتم من العلم إلا قليلا﴾.. حين أعلن الله تعالى أن التمارين التي اخترعها الناس لصقل قدرات الروح تزيد أرواحَهم قوةً إلى حد ما بلا شك، ولكنها قوًى ناقصةٌ تمامًا وقليلة جدًّا بالمقارنة مع القوى الروحانية الحقيقية، وإن إنكار الوحي الإلهي – بناء على هذه القوى الناقصة – مخالف للعقل، لأن الناقص لا يمكن أن يقوم مقامَ الكامل في حال من الأحوال.

والدليل الذي أسوقه دائمًا على كون هذا العلم ناقصًا هو أن الأخبار التي يتلقاها أصحاب هذا العلم من مختلف الملل تكون متضاربةً جدًّا، مع أنه لو كان تلقِّي العلوم الحقيقية من أرواح الموتى من خلال التمارين الروحية ممكنًا لما وُجد في أنبائهم هذا الاختلاف الشديد. إذ كيف يعقل أن تخبر روحُ عيسى عليه السلام أحدًا من أساتذة اليوجا الهندوس خلافَ ما تخبر أحدًا من الأرواحيين اليهود أو النصارى. فها هو السيد إتكنسون الأمريكي– وهو من كبار علماء هذا الفن وصاحبُ مؤلفات عديدة – يقول صراحةً بأنه يطّلع على الأمور السيئة والمنذرة، ولكنه لا يتلقى الأخبار السارة. فقوله هذا يشكّل اعترافًا وتصديقًا لقول الله تعالى ﴿وما أُوتيتم من العلم إلا قليلا﴾. في حين أن الله تعالى يعلن في القرآن الكريم عن الأنبياء ﴿وما نُرسِل المرسلين إلا مبشرِّين ومنذِرين﴾(الكهف: ٥٧).. أي أن أُولى مهام الأنبياء أن يدلوا بالأنباء الغيبية التي فيها أخبار سارة، أما الأنباء المنذِرة فتأتي في المقام الثاني.

وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٧﴾

التفسير: الخطاب هنا موجَّه في الظاهر إلى رسول الله ﷺ، ولكنه ﷺ لم يسأل ولم يعترض؛ فثبت أن الخطاب موجَّه في الواقع إلى غيره ممن سأل أو اعترض. وقد خوطب النبي ﷺ في الظاهر تأكيدًا للموضوع فحسب.

يقول عزَّ من قائل: إن الروح بدون أمر ربها ناقصة لدرجة أنه لو اندرست المعارف النازلة من عند الله تعالى فلن يستطيع هؤلاء الأرواحيون أن يأتوا بها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا؛ فأنَّى لهم – والحال هذه – أن يأتوا بمعارف روحانية جديدة من عند أنفسهم. فمثلاً لو أخفينا معارف القرآن، فلن يقدر أحد منهم أن يأتي بها.

رب قائل يقول هنا: هذه دعوى فارغة فحسب؟ ولكن الحق أنه ليس ادعاء فارغًا، وإنما هو دليل عظيم الشأن. ذلك أن القرآن الكريم لن يندثر ولن يندرس من الدنيا، ولكن معارفه معدومة بالنسبة للذين عقولهم في معزل عن البركات القرآنية. ولو أراد هؤلاء أن يأتوا بتعليم كالقرآن الكريم فلن يقدروا على ذلك أبدًا. والآيات التالية أيضًا تؤيد ما أقول.

كما تتضمن هذه الآيةُ الإشارةَ إلى أن القرآن الكريم سوف يُرفع من الدنيا في يوم من الأيام، ويؤكد ذلك الحديثُ الشريف أيضًا حيث روى ابن مردويه عن ابن مسعود وابن عمر عن النبي ﷺ أن القرآن سوف يُرفَع من الدنيا، ولن يبقى

إلا "لا إله إلا الله". وفي رواية أخرى عن حذيفة* أن النبي ﷺ قال إن القرآن والإسلام سيُرفَعان من الدنيا (ابن ماجة: كتاب الفتن، وشعب الإيمان للبيهقي: باب في نشر العلم)

تؤكد هذه الروايات أن في هذه الآية نبأ أنه سيأتي على الناس زمان لن يبقى من القرآن الكريم إلا رسمُه، وستختفي حقائقه، وأن المتصوفين الزائفين الذين يدّعون مناجاة الأرواح لن يستطيعوا أن يأتوا بمعارف القرآن مرة أخرى.

كنت ولا أزال أقول: ضَعُوا أمام هؤلاء المتصوفين الزائفين بعض الآيات القرآنية الصعبة ليُخبرونا- مستعينين بالأرواح التي يدّعون الاتصال بها- ما فيها من معارف ومفاهيم؟ فلو توصَّلوا إلى دقائقها لكانوا صادقين وإلا فهم كاذبون. ولكن لم يتقدم حتى اليوم أحد لقبول هذا التحدي، ولن يتقدم في المستقبل أبدًا.

إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٨﴾

التفسير: يقول الله تعالى: حين يرتفع القرآن من الدنيا فلن يأتي به مرة أخرى إلا ربك، لأن فضله عليك كان كبيرًا. والمراد من ذلك أنه عند اختفاء معارف القرآن من الدنيا لن يستطيع أحد - من دون المعونة الإلهية - حتى بيانها مرة أخرى، ناهيك عن أن يأتي أحد بمثل القرآن.

قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٩﴾

* ربما يقصدها المفسر رواية حذيفة التالية: "قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: يَدْرُسُ الإسلامُ كما يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ حتى لا يُدْرَى ما صِيَامٌ وَلا صَلاةٌ وَلا نُسُكٌ ولا صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللَّه ﷻ فِي لَيْلَةٍ فَلا يَبْقَى فِي الأرض مِنْهُ آيَةٌ...." (سنن ابن ماجة: كتاب الفتن، باب ذهاب القرآن والعلم)

شرح الكلمات:

ظهيرًا: ظهَر عليَّ: أعانني. ظهَر فلان بفلان وعليه: غلَبه. ظهَر بزيدٍ: أعلَى به ورفَع مرتبتَه. الظهير: المعينُ (الأقرب).

التفسير: لقد اتضح بهذه الآية وضوح الشمس في رابعة النهار أن المعنى الذي بينتُه من قبل هو الصحيح، لأن هذه الآية تكمّل نفس الدليل الذي أشرتُ إليه آنفًا. يقول الله تعالى: تدّعون بأن الإنسان يستطيع أن يصقلَ قواه الروحانية بتمارين خاصة ويتلقى العلوم الروحانية بمناجاة أرواح الموتى. فاجتمِعوا أيها الناس، واستعينوا أيضًا بالأرواح الخفية التي تزعمون أنها تمدّكم بعلوم السماء، ثم أَجمِعوا أمرَكم لكي تأتوا كتابًا مثل هذا القرآن، إن كنتم صادقين. فإن أتيتم بمثله فلا شك في صدق دعواكم، وإلا فأنتم كاذبون. فما دمتم أنتم وهذه الكائنات الخفية التي تعينكم في زعمكم لا تستطيعون جميعًا أن تأتوا بمثل هذا القرآن فما أشدَّ افتراءَكم بأن محمدًا قد اطّلع على هذه المعارف من خلال بعض التمارين الروحانية.

مع العلم أن المراد من ﴿الجن﴾ هنا تلك الأرواح التي كانوا يدّعون معرفة العلوم الروحانية عبرَ مناجاتها. ولما كانت هذه الأرواح – على حد قولهم – خفية عن أعينهم لذلك سمِّيت هنا بهذه التسمية.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾

التفسير: يقول الله تعالى: من أين سيأتون بمثل القرآن؟ فعقولهم محدودة، ولن يأتوا إلا بكلام محصور في دائرة معارفهم، وسيفوتهم أشياء كثيرة تقع خارج نطاق ثقافتهم الضيقة. أما هذا القرآن فيتناول قضايا شتى من سياسة وعلم

وأخلاق ومدَنية واقتصاد بالبحث المستفيض، كما أنه يفصل القضايا التي تختلف فيها الديانات المختلفة. إنهم لا يقدرون حتى على استيعاب مضامين القرآن، فأنّى لهم أن يأتوا بمثله. إنهم يجيدون شيئًا واحدًا ألا وهو الإصرار على الإنكار تعنتًا وعنادًا، لذلك لا يزالون منكرين له بشتى الأعذار والاعتراضات، ولكنهم سوف يتحملون وبال ذلك في نهاية المطاف.

وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩٢﴾

شرح الكلمات:

تفجِّر: فجَر الماءَ: بجَسه وفتَح له طريقًا فجَرَى. وفجَّر الماءَ: مِثلُ فجَره، شُدِّد للمبالغة (الأقرب).

ينبوعًا: الينبوع: عينُ الماء؛ الجدولُ الكثيرُ الماء، جمعُه الينابيع (الأقرب).

التفسير: غيّر الكفار موقفهم لما تلقَّوا جوابًا مفحمًا على اعتراضهم الذي وجّهوه إلى النبي ﷺ بتلقين من اليهود، فقالوا: حسنًا، إذا كان العلم كله في القرآن ففَجِّرْ لنا من الأرض الينابيع، وأَنْبِتْ لنا البساتين التي تجري خلالها الأنهار. وكان هذا اعتراضًا قويًّا بزعم الكفار، ولكنه في الواقع دليل على عقلهم الناقص.

كان الدافع وراء هذا الاعتراض – كما أسلفتُ – هو ظنّ اليهود وغيرِهم من الجـــاهلين أن الذين هم على صلة بالأرواح أو يملكون "الاسم الأعظم" يقدرون على فعلِ ما شاءوا بقوة السحر أو بمعرفة هذا الاسم.

ولقد رأينا هذا الأمر يتكرر في هذا الزمن أيضًا. كان بعض المشايخ يرسلون أتباعَهم إلى مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام، ويقولون لهم: اسألوه المال

بمئات الآلاف، وإذا رفض قولوا له: لقد ورد عن المسيح الموعود أنه سيُفيض المال، فكيف تكون المسيحَ الموعود وأنت لا تقدر على أن تعطي بضع مائة ألف!

أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٣﴾

شرح الكلمات:

كِسَفًا: الكِسَف جمعُ الكِسْفة وهي: القطعةُ من الشيء (الأقرب)

قَبِيلًا: القبيل: الجماعةُ من الثلاثة فصاعدًا. "ورأيتُه قبيلاً" أي عِيانًا مقابَلةً (الأقرب).

التفسير: أي إذا كنت لا تستطيع أن توزع علينا الجوائز فَأْتِ بالعذاب على الأقل. فأَسْقِطْ علينا السماء، أو أْتِنا بالله مع الملائكة ليُهلكنا.

كان أستاذي المحترمُ ﷺ سيدُنا الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام يقول: لقد طالبوا بهذه الأشياء لأن الله تعالى قد وعد بها في القرآن الكريم. ولكني أرى أنهم كانوا يقولون هذا الكلام على سبيل السخرية، لا على سبيل المطالبة. ذلك أن معظم هذه الوعود مذكورة في السور المَدَنية، ولكن هذه السورة مكية. فثبت أنهم قالوا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء. وكأنهم قالوا: ما دام القرآن الكريم يملك هذه القوة الخارقة ففَجِّرْ لنا بقوة القرآن العيونَ، وأَنْبِتْ لنا البساتينَ، أو ائتنا بالعذاب على الأقل. ذلك أنه قد تَرسَّخَ في أذهانهم أن الإنسان قادر على إنجاز هذه الأعمال بقوة السحر أو الاسم الأعظم. وكان اليهود يحملون نفس الأوهام، كما أسلفتُ.

أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾

شرح الكلمات:

زُخْرُف: الزخرف: الذهَبُ؛ كمالُ حُسنِ الشيء (الأقرب).

ترقَى: رَقِيَ يرقَى رَقْيًا ورُقِيًّا: صعِد. ورقاه يرقِيه رُقِيًّا ورُقْيَةً: عوَّذه ونفَث في عُوذته (الأقرب).

التفسير: أي إذا كنت لا تريد أن تعمل هذه الأشياء من أجلنا، فاعمَلْها لنفسك على الأقل.

لقد قال فرعون عن موسى عليه السلام: ليس عنده أَسْورةٌ من ذَهَبٍ، لذا فهو كاذب، أما هؤلاء فزادوا فقالوا ﴿أو يَكونَ لك بيتٌ من زُخْرُفٍ﴾.

أما قول الكفار ﴿أَو تَرقَى في السماء ولن نؤمنَ لرُقيِّك حتى تنـــزّل علينا كتابًا نقرَؤُه﴾.. فأرادوا به الطعن في حادث المعراج، حيث قالوا: لا تحك لنا حادث المعراج، فإننا لن نصدّقك حتى تصعد إلى السماء فعلاً، ثم تبقى هنالك وترمي إلينا من السماء كتابًا، حتى تطمئن قلوبنا بأنك قد صعدت إلى السماء حقًّا.

يرد الله سبحانه وتعالى على ذلك بقوله ﴿قُلْ سُبحانَ ربّي هل كنتُ إلا بَشَرًا رسولاً﴾.. أي أَجبْهم، يا محمد، أن ربي أَسمَى من مثل هذه الألاعيب الفارغة. لقد أنـــزل الله عليّ وحيَه بنفس الأسلوب الذي أنـــزله على رسله من قبل، وسوف يعاملني أيضًا بنفس ما عامل به الرسل السابقين، ولكن ما تطالبون به مُنافٍ لعظمته سبحانه وتعالى، كما أنه متعارض مع رسالتي وبَشَريتي.

والمعنى الآخر هو أن بعض مطالبكم ألاعيب فارغة ولا تتفق مع عظمة الله تعالى. إنه ﷻ أسمى منها وأجل، لأنه إنما يُنـــزل كلامه من أجل أن يترقى الإنسان روحانيًّا. وبعض مطالبكم، مثل الصعود إلى السماء وإلقاء الكتاب من هناك، منافيةٌ لمقام البشرية والرسالة السماوية.

الغريب أنه بالرغم من وجود هذه الآية يؤمن كثير من المسلمين أن عيسى عليه السلام موجود في السماء، مع أنه كان بشرًا رسولاً، ولم يكن مَلاكًا!

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾

التفسير: لقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ من قبل أن يعلن أنه بشر رسول، ولا يدّعي أكثر من ذلك، أما هنا فبيّن أن أكبر ما يثار ضد الأنبياء من اعتراضات هو أنهم من البشر!؟ والحق أنه ليس مجرد اعتراض، بل ينطوي على مطاعن عديدة.

ذلك أن من الناس من يقول إن الله أعظم من أن يتخذ البشر رسولاً. وهؤلاء القوم ينكرون نـــزول الوحي أصلاً.

ومنهم من ينكرون كون البشر رسولاً لكبرهم وعنادهم، بمعنى أنهم يقولون: نحن أيضًا بشر مثله، فلو أراد الله أن يُنـــزل كلامه لأنـــزله علينا أيضًا، ولم يخصه وحده بالوحي، فلا يمكن أن نصدقه. وهؤلاء لا يرون نـــزول الوحي مستحيلاً، لكنهم يكفرون رسولهم لزعمهم بأنه من المحال أن يرسل الله شخصًا وضيعًا مهينًا كهذا إلى قوم كبار أمثالهم.

وهناك فئة ثالثة يكفرون بكون البشر رسولاً، لأنهم يرون أن الإنسان في حد ذاته كامل، وهو في غنى عن الوحي، ويقدر بنفسه على أن يختار الطريق السليم بما جُبل عليه مِن قُدرات وكفاءات.

كما أن هناك فئة رابعة يعترضون على بعث الرسول من البشر، لأنهم يرون أن منصب الرسول يتطلب قدرات تفوق القدرات البشرية. وإنك لو قدّمتَ إلى هؤلاء أضعف كائن في الوجود، زاعمًا لهم أن هذا يتمتع بقوى تفوق قوى البشر لصدّقوك على الفور، ولكنهم لن يُلقوا بالاً لإنسان يتمتع فعلاً بالقوة القدسية، ويكون مثلا أعلى للقوة العَمَلية، ويتجنب التفاخر الكاذب والادعاء الزائف. ذلك أن طبائع هذه الفئة من الكافرين تكون مأسورة بحب الخرافة. يؤمنون أحيانًا بالأنبياء السابقين، ولكن عند بعث نبي جديد ينكشف للعيان العيبُ الكامن فيهم، ويشكل برهانًا على أن إيمانهم بالنبي السابق أيضًا لم يكن إلا تقليدًا متوارَثًا فارغًا فحسب.

قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٦﴾

التفسير: توضح هذه الآية أن المراد من الملائكة هنا أناس ذوو الشمائل الملائكية، والدليل على ذلك هو أن الملائكة بطبيعتها لا تحتاج إلى أن يُبعث أحد لهدايتها ولو مَلَكٌ.

وتردّ هذه الآية على أولئك المتكبرين الذين يزعمون أنهم أسمى من أن يُبعَث إليهم رسول، ويريدون أن ينـــزل عليهم الوحي مباشرةً. يقول الله تعالى: إنما ينـــزل الملاك على من يتحلى بالخصال الملائكية، وليس على من يفتقدها. لو كانت فيكم الخصال الملائكية لنـــزلت عليكم الملائكة، ولكنكم أصبحتم شياطين، فكيف تنـــزل عليكم الملائكة.

كما تمثل هذه الآية ردًّا على أولئك الذين يرون أن النبوة أسمى من أن ينالها البشر، لأنها تتطلب قوًى تفوق القوى البشرية. لقد رد الله عليهم: إنما يُنقَذ

جنس من الأجناس بواسطة فرد من أفراد الجنس نفسه. ذلك أنه لا يمكن لأحد أن يكون قدوة حسنة للآخرين إلا إذا كان من جنسهم. لذا فلا يمكن أن يُبعث إلى البشر رسولٌ من غير جنسهم، لأنه لن يكون لهم قدوة.

ونظرًا إلى هذا المعنى، لا تُؤخذ كلمةُ ﴿رسولا﴾ هنا بمعنى مَن يتلقى الوحي فحسب، بل ستشمل كافةَ الشروط والمواصفات التي تنطبق على مَن يُبعَث رسولاً من البشر.

قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

التفسير: تردّ هذه الآية على جانب آخر من الاعتراض الذي سبق ذكره.. أعني أنها ترد على أولئك الذين يرون أن الإنسان أحقر من أن يتلقى الوحي من الله تعالى، أو الذين يزعمون أن الإنسان كامل في حد ذاته، ولا حاجة له إلى الوحي الإلهي. ويجيبهم الله تعالى على لسان نبيه أنه تعالى أعلم بعباده، وأدرى بما فيهم من عيوب أو كفاءات. فما دام قد بعثني رسولاً فمن حقكم أن تبحثوا في أمري لمعرفة صدقي من كذبي. وكدليل على صدقي أقدّم أمامكم شهادة الله الفعلية، فما دام فعلُه يدعم قولَه فكيف يحق لكم تكذيب دعواي. إذن فلا يمكن أن تثيروا هذين الاعتراضين إن كنتم تعقلون؛ لأنه إذا ثبت أني مرسَل من الله فلا مناص لكم من الاعتراف بأن الإنسان ليس حقيرًا في نظر الله تعالى حتى لا يشرّفه بمخاطبته، وفي ذات الوقت لم يبلغ الكمال حتى يستغني عن وحي الله تعالى.

وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ﴿٩٨﴾

شرح الكلمات:

وجوههم: الوجوه جمع الوجه وهو: ما يتوجّه إليه الإنسان من عملٍ وغيرِه؛ القصدُ والنية (الأقرب).

خَبَتْ: خَبَتِ النارُ والحربُ والحِدّةُ: سكَنتْ وخَمَدتْ وطُفِئتْ (الأقرب).

سعيرًا: السعير: النار ولَهَبُها (الأقرب).

أولياء: جمعُ وليّ وهو النصير.

التفسير: كان الحوار المذكور في الآيات السابقة يدل على أن الكفار يجادلون بغير حق.. لذلك قال الله ﷻ عزاءً للمسلمين ألا يضيقوا بهذا ذرعًا، لأن القرار بهدي أحد أو ضلاله متروك في يده ﷻ. فمن استحق الهدى اهتدى في نهاية الأمر رغم كثرة العوائق، ومن لم يستحق الهدى بقي على ضلاله، أو ضل الطريق في آخر المطاف مهما كثرت فرصُ هدايته في بادئ الأمر. فلا ينبغي للمسلمين أن ييأسوا من ظاهر الأحوال، لأنه حتى أشدُّ المعادين المجادلين بغير حق في ظاهر الأمر يؤمنون في نهاية المطاف أحيانًا، ويضربون أروعَ أمثلة للإخلاص والفداء. فلينظر الإنسان إلى خواتيم الأمور، لأن الخطر إنما هو على من تكون عاقبته سيئة.

أما قوله تعالى ﴿ونحشرهم يومَ القيامة على وجوههم﴾ فقد جاء شرحُه في موضع آخر من القرآن الكريم حيث قال ﴿يومَ يُسحَبون في النارِ على وُجُوههم﴾ (القمر: ٤٩).. فالمراد أنهم سوف يُجَرُّون في النار مكبّين على وجوههم.

ورد في الحديث عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: "إن الذي أمشاهم على أرجُلِهم قادرٌ على أن يُمشيهم على وجوههم." (مسند أحمد: باقي مسند المُكثرين، وروح المعاني).

وفي رواية: "يُحشَر الناس يوم القيامة ثلاثةَ أصناف: صنفٌ مُشاةٌ، وصنفٌ رُكْبانٌ، وصنفٌ على وجوههم." (المرجع السابق).

وفي رواية: "تُجَرّون على وجوهكم." (الترمذي: صفة القيامة، وروح المعاني)

يبدو أن الركبان هنا هم الأنبياء، والمشاة هم المؤمنون، أما الذين يُجَرّون على وجوههم فهم الكفار أهلُ النار.

اعلم أن كل عمل في الدنيا سيكون له انعكاس وتمثُّلٌ في الآخرة. فأعمال الكفار التي لم ينظروا لدى القيام بها إلى الله تعالى، بل عملوها بالنظر إلى الأغراض السِّفلية الدنيّة.. سوف تتمثل لهم على هذا النحو حيث يمشون على وجوههم.

ويقال: مرَّ القوم على وجوههم أي أسرعوا، وعليه فتعني هذه الجملة أننا سنحشرهم وهم يجرُون مستعجلين. ويدعم هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿مهطِعين مقنعي رؤوسهم﴾(إبراهيم: ٤٤). والمقصود أنهم سيكونون في فزع كبير.

ومن معاني الوجه: "ما يتوجّه إليه الإنسان من عمل وغيره؛ والقصدُ والنية"، وعليه فتعني هذه الجملة أننا سنحشرهم حسب نواياهم ومقاصدهم. فإذا كان قصدهم في الدنيا عداء الجماعة الربانية فسيكونون في الآخرة أيضًا مع أعداء الله، مبعَدين عن المولى ﷻ. وكأنه تعالى يعلن هنا أن كل إنسان سيُجزى وفق نيته.

وبما أن الكفار ليس لهم أي رغبة ولا هدف في الآخرة فأخبر الله تعالى أنهم سيُحشرون هنالك عُمْيًا وبُكْمًا وصُمًّا.

أما قوله تعالى ﴿كلما خَبَتْ زدناهم سعيرًا﴾ فلا يعني أن تلك النار ستنطفئ ثم تُشعل مرة أخرى، بل لـــه معنى آخر. ذلك أن الإنسان إذا طالت محنته مات إحساسه بوطأتها، فالله تعالى يقول: حينما يضعف إحساسهم بألم العذاب

سنُرهف إحساسهم به ثانيةً. وقد أكد هذا المعنى في مكان آخر بقوله ﴿كُلّما نَضِجتْ جلودُهم بدَّلْناهم جُلودًا غيرَها لِيذوقوا العذابَ﴾(النساء: ٥٧). فخُبُوُّ النار إشارةٌ إلى ضعف إحساس الكفار بالعذاب، ولا يعني انطفاءَ النار أو زيادتَها، كقولهم: النهر يجري، مع أن الذي يجري هو الماء، لا النهر.

ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾

التفسير: يقول الله تعالى: إن العذاب سيحل بهم بسبب إنكارهم لوحي الله تعالى، وأن هذا الإنكار إنما سببه عدم إيمانهم بالحياة بعد الموت.

لقد ركّز القرآن كثيرًا على هذا المعنى وقال إن السبب الحقيقي لإنكار الدين أو السخرية به هو إنكار الحياة بعد الموت. وإن في هذا لدرسًا عظيمًا للواعظين والمعلّمين والأئمة والمربّين. عليهم أن يرسّخوا في أذهان الأطفال منذ نعومة أظفارهم البراهينَ على البعث بعد الموت، وإلا لن تتم تربيتهم أبدًا على ما يرام. علمًا أن هذه الآيات تنطبق على اليهود أيضًا، لأن أكثرهم كانوا ينكرون البعثَ.

أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٩٩﴾

التفسير: لم يردّ الله على سؤالهم: نعم، إننا قادرون على أن نخلقكم مرة أخرى، لأن مثل هذا الردّ سيكون ادعاءً غيرَ مجدٍ، بل وجّه إليهم سؤالاً: هل توقنون أننا

قادرون على أن نهلككم وننـــزع منكم عزكم وسلطانكم ونمنحه قومًا آخرين؟ ثم أجاب ﷻ بنفسه على السؤال وقال: إن الكفار لن يوقنوا بذلك أبدًا، بل سيرفضونه بشدة، ولكنا نقول لهم: إن القرآن الكريم الذي يخبركم أنكم تُبعثون بعد الموت، يحذركم أيضًا، يا أعداء الإسلام، أن الله تعالى سوف ينـــزع منكم الحُكم وسيهبه للمسلمين؛ فإذا تحقق النبأ الثاني وذهب الله بسلطانكم وحكمكم، فكونوا على يقين بأن النبأ الأول.. أي نبأ البعث بعد الموت.. سيتحقق لا محالة، لأن كلا النبأَيْنِ من الله تعالى الذي يعلم الغيب ويملك القدرة.

ما أروعَ ما تحقَّقَ به نبأُ سلطان المسلمين! إذ لم تستطع الجزيرة العربية ولا حكومات فارس والروم ومصر الصمودَ أمام زحف المسلمين، وخضعت لهم واحدةً تلو الأخرى خلال بضع سنوات؛ وصار هؤلاء الذين كانوا يعيشون كالعمال الكادحين في فقر وفاقة ملوكًا للعالم. أليس الذي أحدث هذا الحشر بقادر على أن يأتي بالحشر الآخر؟ ألم يكن الذين يرون البعث بعد الموت محالاً يستغربون من نبأ حكم المسلمين أيضًا؟

قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ١٠٠

شرح الكلمات:

أمسكتم: أَمسَكَ الشيءَ بيده: قبَضه. أَمسَكَ المتاعَ على نفسه: حبَسه. أَمسَكَ عن الأمر: كفَّ عنه وامتنعَ (الأقرب).

قَتورًا: قـــتَر على عياله: ضيَّق عليهم في النفقة. قتَر الشيءَ: ضمَّ بعضَه إلى بعض. القَتور كصَبور المضيِّق على عياله في النفقة؛ البخيلُ (الأقرب).

الإنفاق: أَنفَقَ الرجلُ: افتقرَ وفنِي زادُه. أنفَقَ مالَه: صرَفه وأَنفَدَه (الأقرب).

التفسير: عاد الحديث هنا مرة أخرى إلى الروح، حيث أخبر الله تعالى أن الفرق بين من يتلقى الوحي الإلهي وبين أولئك الذين يسمَّون "الأرواحيين" هو أن أصحاب الوحي الإلهي يوزّعون الكنوز السماوية بغير حساب، لأن الله تعالى يأمر كل واحد منهم أن "بَلِّغْ، بَلِّغْ"؛ ولكن "الأرواحيين" يعيشون في سرية وغموض ورموز، ويستحلفون تلاميذَهم ألا يكشفوا هذه الأسرارَ لأحد؛ فكيف يمكن أن يصبح هؤلاء هداةَ العالم وقادتَه.

لقد تفشَّى هذا المرض في المتصوفين أيضًا في هذه الأيام. ألقيت ذات مرة خطابًا حول "ذِكر الله تعالى"، وبيّنت فيه كثيرًا من طُرق الذكر وفوائده. فبعث أحدُ الحاضرين إلي – وأنا أخطب – وريقةً كتب فيها: ما هذا الذي تفعل! إن المتصوفين لا يُسرّون للمُريد حتى بواحد من هذه المعارف الربانية إلا بعد أن يخدمهم لعدة سنوات. فما لك، تبوح بهذه الأسرار في جلسة واحدة!

والحق أن لا سِرِّيّة في الدين. إن الله تعالى يريد لعباده جميعًا أن ينالوا أعلى الدرجات من قربه. ولا حاجة له أن يضع العوائق أمام رقيهم، لأنه تعالى غير محدود، ودرجات الوصول إليه أيضًا غير محدودة، فلا يبخل بعلمه مخافة أن ينفد في يوم من الأيام فلا يجد ما يقدّمه لتعليم العباد، فيصبح هو وعباده سواسيةً. أما "الأرواحيون" فعلمهم محدود، ومعظمه باطل، فلو باحوا بأسرارهم كلها لم يرغب فيهم أحد. وبالفعل نرى في كل يوم جديد أنه ما إن يختار أحدٌ من هؤلاء المتصوفين الزائفين خليفةً له إلا وتركه على الفور، لينهج لنفسه طريقًا خاصًّا به ويمارس ما يمارسه معلمه مستقلاً. ولكن لا أحد من تلاميذ الواصلين بالله تعالى يخذلهم، لأنه يدرك جيدًا أن العلم الذي يتلقاه هذا الشخص من عند الله تعالى لن ينفد أبدًا، وأنه لو انفصل عن أستاذه لتوقف رقيه العلمي. إذًا فإذا وجدنا الأرواحيين لا يكشفون لمُريديهم عن اسم أو نقش إلا بعد أن يخدمهم عشر سنوات مثلاً.. فليس سببه إلا خوفهم أنهم لم يؤتَوا من العلم إلا قليلاً وأنه سوف

ينفد بسرعة. ولكن المعارف التي يهبها الله تعالى لأحد لا تنفد في الحقيقة، لأنه تعالى يمنحه المزيد منها كلما توشك على النفاد. فلذلك لا يمكن أبدًا أن تقوم هذه العلوم المكتسَبة بالتمارين المختلفة مقامَ الوحي الإلهي بحال من الأحوال.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠٢﴾

شرح الكلمات:

مسحورًا: سحَره: عمل له السحرَ وخدَعه. سحَره عن الأمر: صرَفه. سحَره بكلامه وألحاظه: استمالَه وسلَب لبَّه (الأقرب).

التفسير: وجاء تفصيل هذه الآيات التسع في مواضع أخرى من القرآن كالآتي:

١- العَصَى، في قوله تعالى ﴿فألقَى عصاه فإذا هي ثُعبانٌ مبينٌ﴾(الأعراف: ١٠٨)

٢- اليد البيضاء، في قوله تعالى ﴿ونـزَع يَدَه فإذا هي بيضاءُ للناظرين﴾ (الأعراف: ١٠٩)

٣- القحط، في قوله تعالى ﴿ولقد أَخَذْنا آلَ فرعون بالسِّنين﴾(الأعراف: ١٣١)

٤- موت الأبكار من الأولاد، في قوله تعالى ﴿... ونَقْصٍ من الثّمرات لعلّهم يذّكّرون﴾(الأعراف: ١٣١)، لأن ﴿الثمرات﴾ هنا تعني أيضًا ثمار القلوب والأفئدة وهي الأولاد.

٥ إلى ٩- الطوفان، الجراد، القُمّل، الضفادع والدم. وكل هذه الأنواع من العذاب مذكورة في قوله تعالى ﴿فأَرسَلْنا عليهم الطّوفانَ والجَرادَ والقُمَّلَ والضّفادِعَ والدَّمَ آياتٍ مفصَّلاتٍ﴾(الأعراف: ١٣٤).

واعلم أن الدم هنا يعني الأمراض التي يفسد أو يضيع فيها دمُ الإنسان مثل الرعاف والبثور والدمامل التي تسيل فيها الدماء بكثرة.

لقد ورد في التوراة تفصيل غريب لهذه الآيات التسع لا حاجة بنا لمعرفته ولا لتصديقه. إن ما يهمنا هو أن الله تعالى آتى موسى عليه السلام تسع آيات ظهرت على فترات، كما هو ظاهر من كلمة ﴿مفصَّلات﴾.

بذكر سيدنا موسى وآياته هنا قد نبّه اللهُ اليهودَ أنه سيُريهم آياته كما أراها فرعونَ، ولكن كما أن فرعون لم ينتفع بها لن ينتفع بها هؤلاء أيضًا، وسيغرقون في آخر الأمر غرقًا روحانيًّا.

أرى أن هذه الآية تتضمن أيضًا الإشارةَ إلى أنه سينـــزل باليهود المعاصرين للرسول ﷺ العذابُ أو الآيات من الصنوف التسعة المذكورة، بيد أنه لم تُتح لي الفرصة لفحص التاريخ من هذه الزاوية.

قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾

شرح الكلمات:

بصائر: جمعُ بصيرة وهي: العقلُ؛ الفطنةُ؛ ما يُستدَلّ به؛ الحجّةُ؛ العِبرةُ؛ الشاهدُ (الأقرب).

مثبورًا: ثـــبَره: خيَّبه؛ لعَنه؛ طرَده. ثـــبَره عن الأمر: منَعه وصرَفه. ثـــبَر اللهُ زيدًا: أهلَكَه إهلاكًا دائمًا لا ينتعش بعدَه (الأقرب).

التفسير: قال موسى عليه السلام لفرعون: إنك تعلم يا فرعون في قرارة نفسك أن رب السماوات والأرض هو الذي قد أنـــزل هذه الآيات تبصيرًا للناس، وإنني على يقين أنك هالكٌ لا محالة.

أو أنه أراد بقوله ﴿إني لأظنك يا فرعون مثبورًا﴾ أنك تسمّيني ﴿مسحورًا﴾ لكي تُشهر بي وتُضعف قوتي، ولكن الله تعالى لن يَدَعَك تظفر ببغيتك، بل سيردّك خائبًا خاسرًا؛ ذلك أن من معاني الثبور خيبةَ الأمل أيضًا.

والمقصود من هذا تحذيرُ اليهود من المصير الذي ينتظرهم، حيث يقول الله تعالى لهم: ترون الآيةَ تلو الآية ومع ذلك تسمُّون نبينا خدّاعًا مكّارًا، وهكذا فعل فرعون بموسى قبلَكم. ولكن هل تعرفون كيف كان مصيره؟

فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٤﴾

التفسير: أي كان فرعون يريد أن يطردهم من الأرض أذلاءَ صاغرين، ولكنه غرق بنفسه.

إن أهل الكتاب أيضًا تآمروا مع الكفار ضد الرسول ﷺ حين جعلوه يخرج لمحاربة جيوش قيصر، ولكن الله تعالى خيّب كيدهم بفضله، حيث رجع النبي ﷺ من تبوك معافًى معزَّزًا (تاريخ الخميس: الجزء الثاني، غزوة تبوك).

وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٥﴾

شرح الكلمات:

لفيفًا: لَفَّه: ضمَّه وجمَعه. لفَّ الشيءَ بالشيء: ضمَّه إليه ووصَله به. لفَّ الكتيبتَين: خلَط بينهما في الحرب. اللفيف: المجموعُ؛ ما اجتمع من الناس من قبائل شتَّى (الأقرب).

التفسير: اعلم أن "الأرض" في قوله تعالى ﴿اسكُنوا الأرضَ﴾ لا تعني بلادَ مصر، لأن بني إسرائيل لم يقيموا بعد ذلك في مصر، وإنما المراد منها الأرض المعهودة في ذهنهم.. أي بلاد كنعان التي وُعدوا بها.

إن للنبي ﷺ فضلاً على موسى عليه السلام من هذه الناحية أيضًا، ذلك أن الأرض التي نالها موسى لم تكن ملك مصر نفسها، وإنما أرضًا بديلة عنها؛ ولكن الرسول ﷺ قد نال الأرض التي هي وطنه، إضافةً إلى بلاد الأعداء.

أما قوله تعالى ﴿فإذا جاء وعدُ الآخِرةِ جئنا بكم لَفِيفًا﴾ فيعني اذهبوا الآن إلى كنعان، ولكنكم ستضطرّون للخروج منها بعد فترة من الزمن، ثم يعيدكم الله سبحانه وتعالى إليها بعد حين تارةً أخرى، ولكنكم ستعصون الله ثانيةً ليحلّ بكم العذاب تارة أخرى، وعندها ستبقون في المنفى إلى أن يحين زمنُ تحقُّقِ نبأِ الدمار الثاني للأمة* التي هي جُعلتْ مثيلةً للأمة اليهودية، وعندها ستُحشَرون من شتى البلاد إلى الأرض المقدسة.

تؤكد هذه الآية أنه كما ورد في مستهلّ هذه السورة النبأُ عن دمارَين يحلان ببني إسرائيل، كذلك هناك نبأ مماثل يتعلق بالأمة المسلمة التي جُعلت مثيلة للأمة الإسرائيلية، كما جُعل الرسول ﷺ مثيلاً لموسى (المزمل: ١٦). والدليل على ذلك هو أن هذه السورة تحدثت في بدايتها عن وعدينِ لبني إسرائيل، وكلاهما عن العذاب، وقد تحقّق أحدهما على يد الملك البابلي نبوخذنصر، وثانيهما على يد الملك الرومي تيطس Titus (رَاجِعْ تفسير أوائل هذه السورة). وليس في هذين الوعدين أيُّ ذكر عن جمع الإسرائيليين مرة أخرى، وإنما ينبِّئان عن تشريدهم. ولكن هذه الآية تنبئ أنه لدى تحقق الوعد الآخر سيؤتى بهم إلى الأرض المقدسة مرة أخرى؛ مما يعني أن الوعد الآخر هذا هو غير الوعد المذكور من قبل- والمسمى أيضا بـ ﴿وَعْد الآخرة﴾ - وأن معه وعدًا آخر هو الوعد الأول. ولو

* أي الأمة المحمدية (المترجم)

أمعنّا النظر في القرآن الكريم لم نجد فيه هذين الوعدين إلا على النحو التالي: إن سيدنا محمدًا رسولَ الله ﷺ مثيلٌ لموسى عليه السلام، وأن سورة الفاتحة تتضمن نبأً أن فريقًا من الأمة المسلمة سوف يتّبعون سُنن أهل الكتاب؛ وبالربط بين هذين الأمرين نستنتج أن هناك وعدين لعذاب المسلمين أيضًا مرتين كما كان ثمة وعدان لعذاب بني إسرائيل مرتين، وأن الوعد المشار إليه في قوله تعالى ﴿وعدُ الآخرة﴾ يعني العذاب الثاني للمسلمين، حيث أخبر الله تعالى اليهودَ أنه لما يحين موعد العذاب الثاني للمسلمين وتخرج الأرض المقدسة من أيديهم لفترة من الزمن سوف يأتي الله بكم إلى هذه البلاد مرة أخرى.

وبالفعل هذا ما حدث. فكما أن الأرض المقدسة خرجت من أيدي اليهود في زمن نبوخذنصر لأول مرة، كذلك خرجتْ أيضًا من أيدي المسلمين إبّانَ الحروب الصليبية (راجِعْ تاريخ القدس لعارف باشا، باب: القدس وحملات الصليبيين). وكما تم نفي اليهود من الأرض المقدسة بعد ثلاثة عشر قرنًا من زمن موسى عليه السلام.. أعني بعد حادث صلب المسيح عليه السلام الذي مات عندها في الظاهر بالنسبة لأهل هذه البلاد، كذلك تمامًا – بعد انقضاء نفس الفترة الزمنية على وفاة النبي ﷺ – قُضي في عصرنا هذا على حكم المسلمين في الأرض المقدسة مرة أخرى. وبحسب نبأ القرآن الكريم، فإن دمار المسلمين الثاني كان سببًا في عودة اليهود إلى الأرض المقدسة تارةً أخرى.

ورد في فتح البيان في تفسير هذه الآية: "وقيل: أراد بـ﴿وعد الآخرة﴾ نزولَ عيسى من السماء." (فتح البيان، والقرطبي). وهذا القول أيضًا يؤيد رأيي.

وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٦﴾

التفسير: لما كان النبأ المتعلق بقوم موسى عليه السلام يتضمن نبأً أن أمة النبي ﷺ أيضًا ستواجه وقتًا صعبًا مرتين، لذا جاءت هذه الآية تأييدًا لهذا المعنى مؤكدةً أن هذا النبأ سيتحقق حتمًا.

واعلم أن هذه الآية تُبطل – ضمنيًّا – زَعْمَ الذين قالوا أن الشيطان كان يتدخل فيما نـــزل على النبي ﷺ من وحي الله تعالى. ذلك أنه تعالى يعلن هنا أننا بالحق أنـــزلنا القرآنَ كما أنه بالحق نـــزل على محمد؛ فما دام القرآن قد وصل إلى الرسول ﷺ بالحق فلا مجال لتدخُّل الشيطان فيه.

وقال الله تعالى في المقطع الأخير: قد أرسلناك أيضًا بشيرًا ونذيرًا مثل موسى، فكما أن قومه حققوا الازدهار سيحقق قومك الازدهار، وكما أن أعداءه هلكوا سوف يهلك أعداؤك أيضًا.

وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٧﴾

شرح الكلمات:

فرَقْناه: فرَق بينهما: فصَل أبعاضَهما. فرَق له عن الشيء: بيَّنه (الأقرب). وقوله تعالى ﴿وقرآنًا فرَقناه﴾ يعني بيّنا فيه الأحكامَ وفصّلناه. وقيل: ﴿فرَقناه﴾ أي أنـــزلناه مفرَّقًا (المفردات).

مُكْث: مكَث يمكُث مُكْثًا: لَبِثَ؛ رَزَنَ (الأقرب). المُكْث: ثباتٌ مع انتظار (المفردات).

التفسير: قوله تعالى ﴿وقُرآنًا فرَقناه﴾ يعني: أنـــزلناه أجزاء مفرَّقة. ذلك أن آيات من شتى سور القرآن كانت تنـــزل في فترة واحدة، كما أن بعض السور الأسبق نـــزولاً كانت تدوَّن لاحـــقةً للسور المتأخرة نـــزولاً، والعكـــس أيضًا

صحيح؛ وكان الاعتراض على نـــزول وتدوين القرآن الكريم بهذا الشكل أمرًا واردًا، فدحَضه الله تعالى بقوله ﴿لتقرَأه على الناس على مُكثٍ﴾.. أي أنزلناه بهذا الشكل كيلا تصاب بالقلق والاضطراب عند القراءة.

والحق أن هذا رد مفحم جدًّا! ذلك أن خطاب الرسول ﷺ كان موجهًا إلى نوعين من الناس: النوع الأول هم أولئك الذين خوطبوا خطابًا مؤقَّتًا، وهم الكفار في زمنه ﷺ؛ والنوع الثاني هم أولئك الذين كان الخطاب موجهًا إليهم بشكل دائم، وهم المؤمنون والذين سيأتون فيما بعد. وكانت القضايا ذات الصفة الدائمة تتطلب ترتيبًا للقرآن الكريم مغايرًا للترتيب الذي تقتضيه الحاجاتُ المؤقَّتة، ذلك أن السور التي كانت تستحق أن يتأخر نزولها بسبب الحاجات ذات الصبغة الدائمة، كانت الحاجات الطارئة – في الوقت نفسه – تتطلب نزولَ تلك السور فوًرا؛ وكذلك كانت الظروف تتطلب بيانَ مضامين معينة لسورةٍ واحدة قبل ذكر مضامينها الأخرى. فلو لم تُراعَ الحاجات المؤقتة ما استطاع المسلمون الردَّ على مطاعن الكفار لسنوات عديدة، كذلك لو لم تتم مراعاة القضايا الدائمة الصفة لما كان القرآن نافعًا في المستقبل.

فالله تعالى يوضح هنا أنه أنـــزل القرآن على أجزاء مفرَّقة وفقًا للحاجات الطارئة، فأحيانًا عجّل نـــزولَ ما هو متأخر من حيث التدوين، كما فعل العكسَ أيضًا؛ ثم أمر بتدوينه بترتيب آخر سدًّا للحاجات التي هي ذات صبغة دائمة. وقد أشار الله ﷻ إلى ذلك في موضع آخر أيضًا بقوله ﴿إن علينا جَمْعَه وقرآنَه﴾(القيامة: ١٨).. أي لم يُرتَّب القرآن نهائيًا بعد، بل سنعيد ترتيبه على شكل نهائي بعد اكتمال نـــزول هذه الأجزاء المتفرقة من الوحي، ليُقرَأ عندئذ وفقًا لذلك الترتيب.

لقد ردّ الله ﷻ بهذه الآية على من قد يعترض قائلا: كيف يمكن أن تتضمن سورة الإسراء الردَّ على قضايا ذات صلة بالسور النازلة بعد سورة الإسراء؟

قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٨﴾

شرح الكلمات:

الأذقان: جمعُ الذَّقَن وهو مجتمَع اللَّحيَين من أسفلِهما. وفي المثل: "مُثْقَلٌ استعانَ بذَقَنِه"، يُضرَب لمن استعان بأذلَّ منه (الأقرب). فقوله تعالى ﴿يخرّون على الأذقان﴾ إشارة إلى غاية تذلُّلهم.

التفسير: اعلَمْ أن ليس المراد من ﴿الذين أُوتُوا العلم﴾ أهل الكتاب، لأن الكتابيين هم أول المخاطَبين في هذه السورة، وإنما المراد منه المسلمون الذين أدركوا الحقيقة من قبل، أي قبل نـــزول هذه الآية، وأيقنوا بصدق الإسلام، وعلموا أن رقي العالم منوط الآن باتباع القرآن الكريم.

أما قوله تعالى ﴿يَخِرُّون للأذقان﴾ فاعلم أن الذقن يكون في أسفل الوجه، فالمراد منه الركوع أو السجود.

لقد عُلِّمنا هنا الطريقةَ الإسلامية لإظهار الخشوع والخضوع أمام الله تعالى. بينما نجد بعض الأمم، كالنصارى وغيرهم، يرفعون وجوههم إلى الأعلى حين ينحنون للسجود إلى الأسفل، فنجد في الصور المسيحية أنهم رسموا سيدنا عيسى ومريم عليهما السلام في حالة العبادة وقد رفعا وجهَهما إلى السماء.

وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٩﴾

التفسير: لقد دلت هذه الآية دلالةً واضحةً على أن الآيات السابقة تضمنت وعود رقي المؤمنين، وأن "الإسراء" لم يكن مجرد خبر عن حادث، بل كان وعدًا لغلبة النبي ﷺ والمؤمنين، حيث قال الله تعالى في مستهل هذه السورة ﴿سبحان

الذي أَسرَى بعبده﴾، وهنا أيضًا قال ﴿سبحان ربِّنا﴾، تنبيهًا إلى أنه قد قطع هنا وعدًا برقيِّ المسلمين ونجاحهم.

كما تتضمن كلمة ﴿سبحان﴾ إشارة أخرى وهي التأكيد على انتصار المسلمين وهلاك الكفار، لأن عدم انتصارهم يؤدي إلى الطعن في قُدّوسية الله وسبوحيته ﷻ.

وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١١٠﴾

التفسير: لقد بين الله هنا حالة قلب المؤمن وقتَ السجود، حيث أخبر أنه يكون عند السجود في أسمى مقام الإنابة. إنه لا يسجد رياء، بل ما إن يخرّ ساجدًا حتى تُسيل عيونه الدموع من تلقائها.

كما أن من صفات المؤمن أن عبادته لا تجعله متكبرًا، بل يزيده سجودُه خشوعًا وتواضعًا.

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١١﴾

شرح الكلمات:

لا تَجهَرْ: جهَر الكلامَ وبالكلام: أعلنَه. جهَر الصوتَ: أعلاه (الأقرب).

لا تُخافتْ: خَفَتَ بكلامه وخافَتَ به: أَسَرَّ مَنطقَه. خفَت بصوته: خفَضه وأخفاه ولم يرفعْه (الأقرب).

التفسير: كان الحديث في الآيات الماضية يدور حول السجود والعبادة التي يُتوقع من المؤمنين القيام بها زمنَ رقيهم، أما هنا فبيّن الله لهم أسلوب الدعاء في السجود، حيث قال لهم: اُدعونا كما نعلّمكم في سجودكم من أجل تحقيق هذه الوعود وإصلاحكم.

أما تفصيل هذا الأمر الإلهي فهو كما يلي:

لقد ذكر القرآن الكريم والحديث الشريف أدعية شتى مع مناسباتها، ولذلك قال تعالى هنا: ﴿فله الأسماء الحسنى﴾.. أي لكل مطلب اسمٌ ملائم من أسماء الله تعالى، فادعوه بالاسم الملائم لمطلبكم. فحين تكون الحاجة لإثارة صفة الرحمانية فادعوه تعالى باسمه الرحمن، ونفس الحال بالنسبة لصفاته الرحيم والرزّاق والوهّاب؛ لأن كل الأسماء الحسنى هي لـــه ﷻ، فادعوه بالاسم المناسب لحاجتكم. وقد جرّبتُ بنفسي أن الدعاء على هذا النحو يكون مؤثّرًا جدًّا.

وليس بمستبعَد أن تكون هذه الآية ردًّا على ادعاء اليهود بمعرفة "الاسم الأعظم".. حيث نبّه الله ﷻ أن تحديد اسم معين من أسماء الله على أنه "الاسم الأعظم" خطأٌ. فعلى الإنسان أن ينادي الله تعالى باسم يناسب حاجتَه، وإذا لم يحضره ذلك الاسم المناسب وقت الدعاء فليعلم أن جميع أسمائه ﷻ عظيمة، فليَدْعُه بأي منها، وسوف يستجيب الله له نظرًا إلى حالته القلبية.

أما قوله تعالى ﴿ولا تَجهَرْ بصلاتك ولا تُخافتْ بها وابتغِ بين ذلك سبيلاً﴾ فاعلم أن الصلاة تعني العبادةَ والدعاء أيضًا، وما دام الحديث هنا يدور حول الدعاء فالصلاة هنا تعني الدعاء.

روي أن النبي ﷺ مرّ بأصحاب له كانوا يدعون بصوت عال، فنهاهم عن ذلك وقال: إنكم لا تَدْعون إلًا أصمَّ! إنه يسمع حتى حسيس النمل.*

* أقـــرب رواية وجدناها بهذا المعنى هي: "إنكم لا تَدْعون أصمَّ، ولا غائبًا. إنكم تدعون سميعًا قريبًا، وهو معكم" (البخاري: المغازي).

لقد نهى القرآن الكريم عن الدعاء بصوت خافت جدًّا أيضًا، ذلك أن هذا الطريق لا يساعد على التركيز. إنما ينبغي للإنسان أن يدعو بحيث يشعر بخروج الكلمات من اللسان، وهذا سيساعده على التركيز أيضًا.

فأما النهي عن الدعاء بصوت عال فقد جاء نظرًا إلى عظمة شأنه ﷻ، وأما النهي عن الدعاء بصوت خافض جدًّا فذلك نظرًا إلى ضعف الإنسان.

وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

التفسير: لقد أخبر الله تعالى هنا أنه سينجز حتمًا وعدَه الذي قطعه في كشف "الإسراء"، وأنه لن تُنشَد في الكون إلا أناشيد ذلك الإله الواحد الذي لا شريك له. لو كان لله ولد – كما زعم الذين ينتمون إلى أهل القدس – لما كان للمسلمين ولي ولا نصير، ولو كان لله شريك – كما زعم المكيون – فمن الذي كان سيهب المُلك للمسلمين. وكأنه تعالى يقول: إن كلا من هاتين الأمتين المشركتين عدو للمسلمين، ولو كان الشرك حقًّا لما أفلح المسلمون قط. ولكن ما دام الله تعالى قد جعلهم – رغم ضعفهم الشديد – غالبين على أعدائهم هؤلاء جميعًا فثبت أن الله واحد لا شريك له.

ثم قال تعالى ﴿ولم يكن له وليٌّ من الذُّلّ﴾، لأن الأصدقاء نوعان: صديق يتخذه الإنسان رحمةً به وإحسانًا إليه، واللهُ تعالى يتخذ أصدقاءه على هذا المنوال، إذ لا يتنافى ذلك مع عظمته ﷻ؛ والنوع الآخر هو صديقٌ يتخذه الإنسان عن عوز وحاجة ليكون له عونًا وسندًا وقت الحاجة، واتخاذ صديق كهذا ينافي عظمة الله تعالى.

واختتم السورة بقوله تعالى ﴿وكبِّره تكبيرًا﴾، وكأنه تعالى أشار بذلك ثانيةً إلى انتصار المسلمين على أهل الكتاب، وأنه كما كان انتصار المسلمين على المكيين شهادةً على زيف أصنامهم، كذلك سيشكّل انتصار المسلمين على الكتابيين برهانًا على أن الذين قالوا ﴿المسيح ابنُ الله﴾ أو ﴿عُزَيرٌ ابنُ الله﴾ هم على الباطل؛ وأن غلبة المسلمين ستؤدي إلى انتشار توحيد الإله الواحد في البلاد كلها، وأن جميع أولئك الذين جعلوا لله ابنًا أو اتخذوا مع الله شريكًا سيُؤتى بهم تحت سيادة محمد رسول الله، وأن هذا العبد الضعيف الحيلة والقوة ﷺ سوف يعطَى قوة وعزة وغلبة، ليكون هذا برهانًا على أنه تعالى أكبر وأعظم من كل القوى. هذا هو سبب انتهاء هذه السورة بقوله تعالى ﴿وكبّره تكبيرًا﴾.

تعالوا معي نمتثل لأمر الله هذا، ونعلن: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر!